عائد إلى الرجولة

عابر سبيل

عائد إلى الرجولة

عابر سبيل

إهداء

إلى الّتي حين سألتها: لم جواد؟

قالت: أحب هذا الاسم كثيراً!

فسميت به بطل قصتي

وبعد أن خضت في أغوارها أدركت أنه حقاً جواد

لتضيف دليلاً جديداً على إتقانها لرسم نجاحاتي بالحب...

زوجتي...

***

إلى الذي أنتظر قدومه

إلى عالم لو استطعت أن أطفئ نيرانه بجسدي لفعلت

أن أنثر عمري على ترابه ليُنبِت جنة لفعلت

أن أضيء ظلماته بنور عينيّ لفعلت

إلا أنّه لا يكون لي أن أبدل من أجلك يا ولدي

عالَماً ما خلقه الله تعالى إلا داراً للابتلاء

لا يكون لي إلا أن أستودعك عند الذي لا تضيع ودائعه

وأن أقدم لك هذا الكتاب عندما ستسألني: ماذا صنعت بالأمانة يا أبي؟

***

إلى الّذي ساقني حزنه سوقاً

إلى التقليب بين أوراق علم النفس

باحثاً عن دواء بإذن الله يشفيه

اعذرني على تقصيري

واقبل مني هذا الكتاب المتواضع

واسال الله عز وجل أن يبارك بما فيه

عساه قد سخره لك ليقربك به منه

صديقي...

***

مقدمة

هل خُلِقت هكذا؟ أم أن أمراً قد طرأ عليَّ فيما بعد؟

هل يمكن أن أتغير يوماً ما؟ أم قدري أن أعيش حياتي كلها هكذا؟

هل سأصبح يوماً ما مثل بقية الرجال؟

هل سأستطيع أن أتزوج وأكوّن عائلة؟

هل سأدرك اللحظة التي تنتهي فيها معاناتي إلى الأبد؟

كلّها أسئلة لا تهمني...

فلا فرق بين أن يُولد معي الابتلاء أو يأتيني متأخراً طالما أن الله سبحانه وتعالى هو الذي اختاره لي...

وليس من تغيّرٍ في هذه الحياة يستعصي على قدرة الله الواحد القهار...

وأعلم أن الله جل وعلا لن يحاسبني على ما سأكون وإنما على ما سأفعل...

أما الزواج والعائلة فرزق من الكريم الحليم، إن شاء أعطى وإن شاء منع...

وأما المعاناة فيالها من لذة عندما أقف بين يدي اللطيف الخبير، ولولا أن حبيبي عليه الصلاة والسلام نهاني عن سؤال الله تعالى البلاء، لسألته البلاء كثيراً لأنكسر بين يديه كثيراً وأذرف من الدمع غزيراً، لكن عافيته سبحانه وتعالى أوسع لي فلأسألنّه انكساراً أكثر ودمعاً أغزر حمداً على فضله وإنعامه...

إن كنت تعتقد ما أعتقد فتوكل على الله واصدق نيتك وخض في هذه الصفحات التي بين يديك، راجياً من العليم الحكيم التوفيق والسداد، وداعياً

للعبد الفقير الأجر على ما وفقه الله إليه من خير والعفو عن الزلل والتقصير.

وإن كنت ممن أراد أن يحبس نفسه في تلك الأسئلة فاعلم أنما هي حياة واحدة، فإما صعود وإما هبوط ولا تظنّنّ يوماً أنك ستبقى على ما أنت عليه ما حييت...

فلا سبيل لتجنب خطر السقوط إلا بالصعود...

فإذا صعدت فلا تنتظرنّ سبيلاً سهلاً، كن على يقين أن أمامك عقبات، ولكنها مفصّلة تماماً على مقاسك، فالله لا يحمّلك ما لا طاقة لك به ولن يتركك أبداً ما دمت قاصداً وجهه الكريم...

اللهم اغفر لي حظ النفس مما كتبت واجمعنا مع النبي المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم في عليّين ...

المؤلف

السابع والعشرون من رمضان ١٤٤٣

مدخل

سواء أكانت نظرة متأملة في السماء في ليلة مقمرة صافية أو في الأرض وما عليها من أزواج بهيجة فإنها ستخبرنا عن رب عظيم جليل، خلق فأبدع وصنع فأتقن وقدر فهدى...

فإذا تحولت النظرة إلى النفس فعلمت أن ذات الرب العظيم خلقها من عدم وكرمها أبت العين الناظرة إلا أن تجود بالدمع وانهالت أسئلة التعجب من الحب: ربٌّ عظيم يخلقني أنا؟ يكرمني؟ يحبني؟ يهديني؟ من أنا لألقى ما لقيت من ربي العظيم؟ وهل كنت لأكون لولا قوله كن فيكون؟

أسئلة لا يقدر أن يجيب عليها لسان وحب لا يُستطاع التعبير عنه وشوق لا يتحمله قلب...

وهل انتهى الفضل عند هذا الحد؟ لا أبداً... ففضل الله لا ينتهي وعطاياه لا تنفذ... خلقنا وكرمنا ثم أراد أن يقربنا منه جل وعلا وأن نسير إليه بإرادتنا وأن نزكي أنفسنا بأنفسنا وهو في هذا كله معنا، يفيض علينا بالرحمة والبركات، يحمينا من ضعفنا، يربينا كما ربى أبانا آدم عليه السلام لنكون كما أراد لنا أن نكون ونلقاه بقلوب سليمة...

إنها حقاً رحلة من الحب إلى الحب وبالحب...

وكما أن لكلٍّ منا بصمة فريدة فلكل رحلة حب محطات فريدة وإن كان الطريق واحداً... ولرحلة جواد محطات أودّ أن أخبركم عن معالمها وكيفية عبورها، عل أحدكم على موعد مع أحدها أو مازال واقفاً عندها وينتظر الدليل، أو مر بجانبها فوجد عابر سبيل قد علق عندها فطلب منه يد العون.

فلنبدأ رحلة الحب معاً...

ولادة جديدة

نَفْس ونَفَس، سواء أكانت هاتان الكلمتان مشتقتين من نفس المصدر أم لا فإن أنفاسنا تعبر بلا شك عن أنفسنا، في الوقت الذي نعجز فيه عن فهمها. فأنفاسنا المنخنقة تخبرنا عن شيء مختلف تماماً عما تخبرنا عنه أنفاسنا المطمئنة.

وأنفاس جواد في تلك الليلة المظلمة كانت تكشف له عن خوف عمره سنين طويلة، مهما قلّ عددها فإن طول واحدة منها يعادل سنين كثيرة، لكن الله سبحانه وتعالى أعطاه من الشجاعة حينها ما مكّنه من الإمساك بهاتفه والاتصال بالرقم الذي قرأه مرة على باب عيادة كان قد مر بجانبها مع صديقه الصدوق عبد الله حين قال له: هل سمعت بهذا الطبيب من قبل يا جواد؟ إنه طبيب نفسيّ سمعته طيبة جداً. فرد عليه جواد مباشرة: ومن أين لي أن أسمع به؟ أبعد الله عنّا الأمراض النفسية والأطباء النفسيين!

لم تكن أمام وجه جواد عندها مرآة تخبره عن حقائق أصدق من التي قالها بلسانه ولم يكن عبد الله من أولئك الذين يتلقطون لحظات الارتباك ثم يتباهون بقدرتهم على كشف ما في الصدور من خلالها غير مستشعرين قدرتهم الفائقة على إلحاق الأذى بالآخرين، ولعل هذا ما جعل تلك الصداقة تصمد أمام تحديات فشلت معها معظم صداقات جواد الأخرى.

إلا أن موقع العيادة حفظه جواد والشارع الذي يحاذيها حفظ خطواته المتكررة الواعية منها وغير الواعية، إلى أن امتلك الجرأة إحدى المرات على أن يقترب من باب العيادة القرب الذي يمكنه من قراءة رقم الهاتف المعلق عليه فكتبه ثم هرب مسرعاً.

كان هذا الرقم بالنسبة لجواد مثل رقم الطوارئ، أحسّ أنه سيحتاجه يوماً ما، وهذا ما حصل معه في تلك الليلة فاتصل وحاول أن يلفظ كلمات مع أنفاسه المنخنقة ليحجز موعداً مع الطبيب.

كانت الرحلة إلى الموعد شاقّة جداً رغم اعتياده السير في ذلك الشارع، فنهايتها اليوم في داخل العيادة وليست مجرد عبور بجانبها. تجمعت حوله مخاوف ومعتقدات وتعلقت برقبته وأطرافه أحمال ثقيلة، وكلها تريد أن تثنيه عن متابعة المسير وانهالت عليه بالأسئلة: ماذا لو رآك أحد زملائك في الجامعة الآن وسألك إلى أين أنت ذاهب؟ هل تعتقد أنك ستستطيع أن تقنعه أنها مجرد نزهة؟ ماذا لو رآك خطيب أختك وأنت داخل إلى عيادة نفسية؟ هل تعتقد أنه سيقبل أن يتزوجها وأخوها يعاني اضطرابات الله أعلم بها؟ ماذا لو علم والداك بهذا الأمر؟ كيف ستقابلهما؟ ماذا ستقول لهما؟

وإلى جانب كل تلك الأسئلة كان يقف الشيطان يراقب جودة أدائها فإذا ما بردت أو استطاع جواد بعون الله التغلب عليها حمّى الوطيس، وجواد يسير على طريق مستو والناظر إليه يظن أنه يصعد جبلاً ويتعجب من ارتداداته المفاجئة إلى الخلف. وعندما باتت خطوة هي الفاصل بين جواد والعيادة استجمعت تلك المثبطات قواها وسألته السؤال التي ظنت أن به هلاك رحلته:

ماذا لو علم كل أولئك السبب الذي جاء بك إلى هذه العيادة؟

في تلك اللحظة صرخ جواد صرخة لم تخرج من فمه ولكنها دفعته إلى داخل العيادة دفعاً وهو يقول: لست أعصي الله عز وجل، لست أعصيه.

من رحمته عز وجل بجواد أن جعل الطبيب يخرج إليه في غرفة الانتظار بعد لحظات قليلة، فما بقي من قوة عنده بعد تلك الرحلة لم يكن كافياً لجعله قادراً على الانتظار طويلاً.

الطبيب: أهلاً بك يا جواد، تفضل معي.

كلمات قليلة بصوت رجوليٍ حنون متعب بعض الشيء هدّأت من روع جواد وخففت من تسارع ضربات قلبه، وعندما دخل غرفة الطبيب ملأت

قلبه طمأنينة ما عهدها من قبل، أجلسه الطبيب على مقعد مريح وجلس أمامه. وسرعان ما عادت ضربات قلب جواد تتسارع عندما أمسك الطبيب بدفتر وقلم ثم قال:

أخبرني يا جواد ما الذي جاء بك إلي، أنا أصغي إليك.

كان من الصعب جداً على الكلمات أن تخرج من فم جواد على عكس دمعاته التي عبرت بلا استئذان، ربما كانت أول مرة يبكي فيها جواد خارج خلواته مع الله سبحانه وتعالى، لقد كانت أول لحظة ضعف في حياته سمح لغيره أن يعيشها معه منذ أن أتقن التظاهر بالقوة في أشد لحظات الضعف. كان الطبيب هادئاً جداً ينظر إلى جواد دون أن يراقبه، يلحظ تعابير وجهه، لغة جسده وينصت إلى أنفاسه وأناته دون أن يشعره بأنه يخترق خصوصيته، جواد نفسه كان مستغرباً من قدرته على التعبير عن ضعفه أمام الطبيب، إلا أن طمأنينة الطبيب كانت توحي بأن ما حدث فيه خير.

لم يكرر الطبيب السؤال ولم يُظهِر أي تلميح بأنه ينتظر، وعندما فتحت العبرات الطريق للكلمات قال جواد بحزن:

لم أخبر أحداً من قبل عن مشكلتي ولا أعرف كيف أبدأ.

الطبيب: لو كنت تعاني ألماً في رأسك وذهبت إلى الطبيب ماذا كنت ستقول له؟

جواد: كنت سأقول له إن رأسي يؤلمني.

الطبيب: فأخبرني إذاً يا جواد ما الذي جاء بك إلي؟

جواد: أنا لست كبقية الرجال، أنا مختلف عنهم جداً واختلافي عنهم يجعلني وحيداً دائماً.

الطبيب: لا أستطيع أن ألاحظ هذا الاختلاف، هلّا أخبرتني عنه أكثر؟

جواد: لا أشعر بأن شيئاً يجذبني إلى النساء، لا قلب يخفق ولا مشاعر تتحرك أو شيء يُثار. لكن هذا ما يحدث لي أحياناً عندما أكون مع الرجال، وعندها أشعر أن قلبي يكاد ينفطر. أنا لا أعترض على قدر الله عز وجل والعياذ بالله ولكني ولأني أحبه سبحانه وتعالى أخجل منه عندما يتعلق قلبي بغيره، عندما لا أستطيع أن أكون كما أراد لي أن أكون. أحمده دائماً أنه ما أبعدني عنه يوماً وأنه يحميني دائماً من الانزلاق فيما لا يرضاه ويسترني ويحبب الناس فيّ. أنا لست هنا لأسألك لماذا أنا هكذا، فأنا أعرف أني ما خُلقت إلا لأُبتلى، وإنما أريد أن أفهم حالتي بشكل أفضل وأعرف كيف أتعامل معها ليرضى الله سبحانه وتعالى عني.

الطبيب: بارك الله فيك يا جواد، لقد اختصرت عليّ طريقاً طويلاً بعلمك أنه يجب أن تكون كما أراد الله لك أن تكون، هلا أخبرتني كيف يريد الله لنا أن نكون؟

جواد: يريدنا عباداً صالحين، قلوبنا معلقة به وحده، نياتنا خالصة لوجهه الكريم، جوارحنا مشتغلة في طاعته متّقية لمعاصيه.

الطبيب: وكيف يريد لنا أن نكون كرجال؟

عادت دمعات جواد تسد الطريق أمام كلماته، لقد أيقظ الطبيب بكلمة "لنا" - قاصداً لنا نحن الرجال - حنيناً قديماً كان قد استقر في قلبه جعل عينيه تجودان بالعبرات، حنيناً إلى ذلك العالم الذي كان جواد على يقين أنه ينتمي إليه إلا أنه لسبب ما لم يجد لنفسه مكاناً فيه، عالم الرجال هو العالم الذي ظلّ جواد توّاقاً إلى دخوله واليوم وبكلمة من ثلاثة أحرف خرجت من فم رجل صادق شعر جواد بأنه على وشك الدخول إلى هذا العالم بعد أن ظنّ أنه لا يتسع لمثله وجلس أمام رجاله كلهم ليخبرهم كيف يريد الله لهم أن يكونوا فجاد بالكلمات أكثر مما جاد بالعبرات قائلاً:

أراد لنا أن نكون رجالاً صادقين، صادقين معه سبحانه، صادقين مع خلقه، وصادقين مع أنفسنا، وأمرنا حبيبنا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أن نتحرى الصدق وهذا يعني أنه ليس بالأمر الهين أن نكون صادقين. لا أستطيع أن أتصور رجلاً كاذباً، هل يترك الكذب شيئاً من الرجولة دون أن يمحوه؟ لا أعتقد.

أرادنا رجالاً أقوياء نقف في الصف الأول عند انتهاك الحرمات فنفديها بأرواحنا.

أرادنا أزواجاً صالحين يغدقون من حنانهم على زوجاتهم وأولادهم.

أرادنا أبناء بارين.

أرادنا شجعاناً لا نخشى إلا وجهه الكريم.

لقد كرمنا سبحانه وتعالى بالرجولة وحمّلنا أمانة تتناسب مع هذا التكريم.

الطبيب: أخبرني يا جواد هل مازلت تعتقد أنك تختلف عن الرجال جداً؟

بعد كلمة "لنا" التي مازالت تبث في قلب جواد حياة ما عرفها من قبل جاء هذا السؤال ليدخله في مواجهة مع نفسه، عاد به إلى ماضيه، جعله ينقّب فيه عن هذا الاختلاف الكبير الذي كان يعتقد أنه يفصل بينه وبين الرجال، وبعد تفكير طويل قال محاولاً تجميع شتات أفكاره:

الاختلاف موجود بالتأكيد، أما كونه كبيراً فلا أستطيع أن أؤكده، عندما جئت إليك كنت قد حصرت الرجولة في مجال صغير فرأيت نفسي في الخارج، ولكن عندما سألتني كيف أراد الله لنا أن نكون كرجال اتسع هذا المجال واستشعرت نعم الله سبحانه وتعالى عليّ وما منحني من صفات الرجولة. قد لا يكون الاختلاف كبيراً ولكني مهما امتلكت من صفات الرجولة أشعر أني غير بقية الرجال، أشعر أني وحيد وأنا معهم، أشعر أني طفل بين الرجال.

الطبيب مفكراً بما قاله جواد: طفل بين الرجال. أخبرني أكثر عن مشاعرك يا جواد عندما تكون مع الرجال.

جواد: مشاعري تختلف باختلاف الأشخاص وباختلاف المواقف. مع بعض الرجال أشعر بالثقة والأمان، أعتقد أن السبب في ذلك هو في عدم وجود انجذاب نحوهم، أما مع الرجال الذين أشعر بانجذاب نحوهم فأكون مضطرباً جداً وتنتابني مشاعر كثيرة لا أستطيع التمييز بينها ولا إدراكها، لكني في تلك اللحظة أشعر أني أتلاشى، أتحول إلى لا شيء وبعد ذلك أشعر بوحدة قاتلة.

الطبيب: وماذا عن اختلاف المواقف؟

جواد: حتى مع أولئك الأشخاص الذين أشعر بانجذاب تجاههم أشعر أحياناً بالثقة.

الطبيب: ومتى يكون ذلك؟

جواد مفكراً: ربما عندما نقوم معاً بإنجاز يشعرني بالرضى.

الطبيب: جميل.

ساد هدوء إيجابيّ وتبادل جواد والطبيب النظرات، كان جواد يشع حياة وأملاً إلّا أن السؤال الذي جاء به إلى الطبيب لم يسمع جوابه بعد، كان الأمل يدفع بهذا السؤال، فإذا ما وصل إلى لسانه وكاد أن يخرج منطوقاً سحبه الاعتقاد القديم بأن مشكلته لا حل لها وأن عليه أن يتعايش معها، وعندما استطاعت دفعة الأمل التغلب على سحبة الاعتقاد قال بصوت هادئ:

دكتور... هل إلى شفاء من سبيل؟ أم قدري أن أبقى هكذا؟ بلا زواج، بلا عائلة، وبلا أصدقاء حقيقيين؟ والله لا أبالي بكل هذا، وأشهد الله أني مستعد أن أعيش حياتي كلها أجاهد نفسي حتى ألقى الله بقلب سليم، فالله

يؤنس وحشتي ويخفف كربتي ويعينني على مشاقّ الحياة، ولكني أخشى أن أكون مقصراً إذا لم أبحث عن دواء، فهل من دواء؟ أنا موقن بأنه لا يُعجِز الله سبحانه وتعالى شيء وأنه قادر على شفائي، لكني لا أستطيع أن أتصور كيف سأتغير؟ ما الذي سيتغير فيّ؟ كيف ستتغير ميولي؟ هذا كله يحصل رغماً عني، ليس قراراً مني، خاصة الإثارة لا أملك أي سيطرة عليها، بل على العكس هي التي تسيطر عليّ وتتحكم فيّ، بدقات قلبي، لون وجهي، تحفيز عضوي.

الطبيب: من الطبيعي ألا تستطيع تصور شيء لم تجربه بعد، وهكذا هو التغير المنشود، وعدم قدرتك على تصوره لا يعني عجزك عنه. لن أخبرك عن قصص رجال جاؤوا إليّ يعانون ما تعاني ثم عافاهم الله ورزقهم زوجات وأولاد، لن أغرس فيك أملاً بهذه القصص، هل تعلم لماذا يا جواد؟ لأني لمست من كلامك يقيناً بالله وحباً صادقاً له أقوى من كل تلك القصص. استمد القوة من الله تعالى واستعن به على التغيير.

كان جواد يصغي إلى تلك الكلمات بكل ما فيه ويستقبل ذات النفحات التي عوّده ربه جلّ وعلى عليها في كل محطات حياته، نفحات تسدل دمعه وتحيي قلبه وتحرك لسانه ليلهج بالدعاء، نفحات لا تُنتظَر ولا يُعلَم متى يمكن أن تعود، اغتنامها فطنة وحكمة وإضاعتها خسران وندامة، لذلك طلب جواد من الطبيب أن يأذن له بالسجود شكراً للمعطي اللطيف الخبير، وبهدوئه الرصين أخرج الطبيب سجادة من خزانة مكتبه ومدها على الأرض وكأن يديه بوصلة ثم قال بحب:

تفضل يا جواد. ثم خرج من الغرفة كي لا يشوش على جواد استقبال نفحات خالقه وهو يغبطه عليها.

لم ير جواد من الغرفة إلا موضع سجوده، فارتقى إليه بخطوات لم يشعر بها، وكأن جسده ارتفع مع روحه، رفرف قلبه عالياً عندما سكنت جبهته حيث سبقتها دمعته ثم قال همساً لا جهراً:

أحبك يا الله...

خلقتني بعد عدم، هديتني بعد ضلال وأغنيتني بعد فقر...

أفضت عليّ بنعمك، وأنعمت عليّ بالحمد عليها...

صبرتني، ثبتني، طهرتني وزكيت نفسي...

وبعد كل هذا الفضل والإنعام الذي ما استحققته يوماً فتحت لي أبواب رحمتك وجبرت كسري، استجبت لدعائي كما عودتني دائماً وجعلت الطبيب يبشرني بأن التغيير أمر ممكن...

اللهم اصنعني على عينك...

اللهم ألبس قلبي ثوب الرجولة كما ألبسته بدني...

اللهم استجب، اللهم استجب...

رفع جواد جبهته عائداً بها إلى دار الاختبار بعد أن استوفت نفحات الجنة وانتظر دخول الطبيب، فما أن دخل وجلس أمامه حتى قال له متلهفاً:

أخبرني يا دكتور كيف أبدأ طريق التغيير؟

الطبيب: لقد بدأت الطريق من قبل أن تأتي إليّ، بدأته عندما سعيت لتكون كما أراد الله لك أن تكون. واليوم أزلت حجباً عن حقيقة مهمة وهي أنك قادر بإذن الله أن تتغير، وهذا التغيير سيشمل كل حياتك، نظرتك لنفسك وللآخرين، علاقتك مع الرجال وقدرتك على إقامة علاقة ناجحة مع زوجة المستقبل والحفاظ عليها، تقديرك لذاتك ولغيرك وتعاطفك معهم. ما أريده منك اليوم أمران: الأول أن تدرك أن التفكير يحدد المصير والتكرار يولد الاستقرار. أفكارك تستطيع أن تتحكم فيها، أن تراقبها، توجهها وأن تحرف مسارها، تستطيع أن تتعامل معها بوعي، ومع تكرار التفكير الواعي ستتغير المشاعر التي بدورها ستغير السلوك. الأمر الثاني: هو أن

تعلم أننا في شؤون حياتنا كلها نركز على سعينا لا على نتائجه ونُحاسَب على سعينا لا على ما نصل إليه، لا أقول ذلك لأجعلك تقنط من رحمته تعالى ولكن حتى توجه طاقتك إلى ما كلفك الله به بدل أن تصرفها بما كفله لك.

كانت كلمات عميقة تحمل دروساً بليغة وكان جواد يتقلب بين الفرحة بولادته الجديدة والإنهاك من مخاضها، حاول أن يستوعب من الدروس ما يستطيع ثم سأل الطبيب:

متى يجب أن آتيك مرة ثانية؟

الطبيب: أنت من يحدد موعد اللقاء القادم، ستحدده كما حددت موعدنا هذا.

جواد: عندما أحتاجك؟

الطبيب: بل عندما يقدر الله لك أن تأتي إليّ...

خرج جواد من العيادة مستعداً لحياته الجديدة، صحيح أن شيئاً لم يتغير فيها، لكن جواداً الخارج من العيادة مختلف تماماً عنه قبل الدخول. كان حماسه في تلك اللحظة كالغشاوة على عينيه اللتين كانتا تنظران إلى الحياة كصفحة ناصعة البياض، وكان يستعد لرسم ما يعتقده أول خط فيها كما يخط المولود بصرخته أول حرف في حياته، إلا أن هذه الغشاوة بدأت تنقشع مع أول نظرة ألقاها على هاتفه المحمول لتكشف له أن ولادته ليست كبقية الولادات، هي ولادة مع ماض لا يمكن محوه وليس من الحكمة محوه.

على شاشة هاتفه الصغيرة وجد خمس إشعارات اتصال من والدته، وهو عدد يكفي لجعلها تستعد للبحث عنه في مقاسم الشرطة والمستشفيات، وبينما كان يحاول النزول إلى واقعه جاءه الاتصال السادس ليسلبه القدرة

على الرد على المكالمة ويزيد عدد الإشعارات إلى ستة ويجعله يرتطم في واقعه ارتطاماً مؤلماً.

كان كل ما يشغله في تلك اللحظة إيجاد إجابة عن سؤال والدته المرتقب عن سبب تأخيره، إجابة ليس فيها كذب ولا قول حقيقة، ولأنه يعلم أنهما اثنان لا ثالث لهما وأن كليهما مستحيلان دعا الله تعالى أن يصرف أمّه عن هذا السؤال، وعندما جاء الاتصال السابع كان رده سريعاً جداً وأسرع من رده كانت كلمات والدته:

رددت أخيراً؟ لو كنت تعلم ما يحدث لقلب الأم عندما تخاف على ابنها لكنت رددت من أول مرة، ألا تملك القليل من الإحساس؟ الساعة الآن التاسعة والنصف ولم تعد إلى البيت حتى الآن، تريد أن تثبت لي أنك أصبحت رجلاً؟ الرجولة عندك أن تتأخر في العودة إلى البيت؟ هل عيب على الرجال أن يخبروا أمهاتهم أنهم سيتأخرون؟ هل ينقص ذلك من رجولتك شيئاً؟ أنا متفاجئة بك حقاً، ما كنت أتوقع أن تقابل حبي لك بهذه القسوة وعدم المبالاة.

كانت آثار ارتطام جواد بواقعه واضحة عليه كله، الحزن لم يغطي وجهه فقط، لقد غطى جسده بالكامل، كل ما فيه كان يخبر المارة بأنه حزين، وكان حزنه حزنين وكان تقلبه بينهما مؤلماً إلى حد الإنهاك، أيحزن على والدته وما أصابها بسبب ما اعتبرته تأخيراً بالعودة إلى البيت؟ أم يحزن على نفسه المقيدة بقيود والدته التي لا تتجه مع تقدمه بالعمر إلا نحو الازدياد؟

كان يود جواد أن يجيبها على كل الأسئلة التي أطلقتها، أن يخفض لها جناح الذل من الرحمة ويقول بصوته الحنون الذي يجبر أي أم على أن ترضى عن ابنها مهما غضبت منه ومهما قسا قلبها:

أمي، أعتذر جداً عما سببته لك من حزن وقلق، أرجوك سامحيني، والله ما ينقص من رجولتي أن أكون خادماً عند قدميك، والله ما كانت قسوة ولا عدم مبالاة، وأي رجولة هي تلك التي أبحث عنها بإثارة قلقك؟ تباً لها من رجولة. ما أردت أن أثبت لك أني أصبحت رجلاً، فلا يضرني أن أكون معك طفلاً ما حييت، لكني أردت أن أرمم رجولتي يا أمي حتى لا يأتي عليها ذلك اليوم الذي ترينها فيه تحتضر، إذا جاء ذلك اليوم فلن أستطيع أن أثبت لنفسي أنا أني رجل. معذرة يا أماه، لم أرد أن أضاعف خوفك وحزنك فأخفيت عنك ذلك.

ظلّ جواد يردد تلك الكلمات وهو عائد إلى المنزل ومع كل تكرار كانت تتساقط كلمات حتى لم يبق منها عندما وقف أمام والدته دون أن ينظر إلى عينيها إلا:

معذرة يا أماه.

فردت بغضبها المعتاد: هذا ما تجيده، الاعتذار، أما أن تطمئنني عليك فصعب جداً.

ثم بقيت تتكلم دون توقف ولم يدرك جواد كثيراً مما قالت فقد كان متخماً بمخاوفها وقلقها ومنهمكاً في الدعاء أن يصرف الله عنها ذلك السؤال. أما والده فكان يجلس على الأريكة ينظر إلى الأرض مقطباً حاجبيه دون أن يفصح عن سبب ذلك، كان كاللّغز الذي لا يمكن حله. هل هو خائف أيضاً؟ أم غضبان؟ هل هو منزعج من صوت زوجته الذي يفزع كل ذرة أمن في البيت ويطرد كل أمل بالطمأنينة من أركانه؟ أم منزعج من تأخر جواد؟ هل يعتقد هو الآخر أن جواداً يحاول أن يثبت رجولته؟ هل يرى رجولته أصلاً؟ أسئلة تنازل جواد عن البحث عن إجابات لها منذ نعومة أظفاره، وكذلك أخته الكبيرة حنان الواقفة بجانب والدتها تحاول أن تهدئها تارة وتدافع عن أخيها تارة وهي تنظر إليه نظرات مفهومة جداً على عكس نظرات والديها، نظرات تقول له فيها:

أنا أفهمك يا أخي، أحبك جداً وأتمنى لو كنت أستطيع أن أخفف معاناتك مع أمي.

فيرد عليها جواد بنظراته المفهومة أيضاً:

لا عليك يا أختاه، وأنا أحبك جداً.

عندما عجز صوت والدة جواد عن الخروج بعد صراخ طويل دخلت غرفتها وأغلقت الباب، ووالده ما زال على حاله وكأنه كان نائماً بعينين مفتوحتين وحاجبين مقطبين، اقتربت حنان من أخيها مواسية بابتسامتها الصادقة المغلفة بالحزن فرد عليها بالصدق ثم دخل غرفته وأغلق على نفسه.

الحمد نعمة عظيمة وجواد يقدرها جداً ويحفظها جيداً فتأتيه حتى في أحلك اللحظات.

"الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله."

قالها ثلاثاً حمداً للّطيف الخبير على صرف والدته عن السؤال الذي كان يقلقه، ثم بدأ يستجمع نفسه بعد يوم طويل، يستجمعها في غرفته متقنة الترتيب، منعشة الرائحة، جذابة الألوان. من يدخل غرفة جواد لا يستطيع أن يصدق أن أحداً قد سكن فيها للحظة، والعجيب أنها تبدو كذلك دائماً، حتى عندما يكون مشغولاً جداً، هي دائماً تبدو وكأنها على موعد لالتقاط صور تستحق أن تُنشَر في إعلانات المجلات والطرقات. ركن الصلاة أحلاها وأدفؤها ففيه يقضي جواد معظم أوقاته وأحلى لحظاته، فيه يعيش خلواته مع ربه جلّ وعلى ويشكو له ضعفه ويفتح الباب أمام دمعاته عند منتصف الليل بعد أن كان موصداً طيلة اليوم خشية أن تلمحها والدته فتفتح معه تحقيقاً عن سببها، هي تخشى على ولدها البكاء وليتها علمت أن الشيء الوحيد الذي يعينه على تحمل استقبال يوم جديد هو ذاته الذي تخشاه عليه وأنه لولا بكاؤه لبلغت خشيتها حد الجنون لما قد تراه من حال

ابنها بعد أن رمته مشكلة حياته في وادي الاستسلام أو جعلت أبواب الشر تتخطفه، لكنها رحمة اللطيف الخبير تتغمده وتخفف معاناته وتجنبه كل سوء.

وضع جواد رأسه على وسادته النظيفة واستسلم للنوم استعداداً لأول يوم بعد ولادته في واقعه الجديد الذي أزاح عنه الاعتقاد القديم بأن مشكلة حياته سترافقه حتى الموت ورسم مكانه طريق التغيير مع يقينه أن نهايته علمها عند علام الغيوب وأن بيده السعي لبلوغها وبقلبه حسن الظن بمن لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

أول يوم بوعي

استيقظ جواد مع "الصلاة خير من النوم"، توضأ مستشعراً قطرات الماء تسيل على وجهه ويديه، ناظراً إليها وهي تقطر منه، راجياً من الفتاح العليم أن تكون آخر خطاياه قد فارقته مع آخر قطرة. مشى إلى المسجد متحلّياً بابتسامته التي ينتظرها المصلون ليبدؤوا بها يومهم، هم كلهم بعمر والده الذي غاب عنهم كحال شباب حارته الذين ما زالوا في أسرّتهم، وجواد يرجو من الله عز وجل في كل يوم وقبل أن يدخل المسجد أن يجدهم قد سبقوه إليه مع علمه أن وجودهم قد يسلبه شيئاً من طمأنينته لكن حب الخير لهم يستمر ولو على حسابها. بسبب غيابهم تغرب مشكلة حياة جواد مع كل فجر، فيتحرر من سطوتها على قلبه وجوارحه ومع المصلين يجد نفسه وفي بيت الله يشعر بالأمان.

بعد أن ملأ قلبه بما يعينه على متابعة المسير عاد إلى بيته والكل نائم، دخل غرفته وأمسك بورقة وقلم، وبخطه الذي يصعب تمييزه عن طباعة الكمبيوتر خطّ على الورقة كلمات كرموز لا يستطيع تشفيرها وفهمها إلا هو، لخّص فيها جلسته في العيادة النفسية: الله معك، ركز على السعي، فكر بوعي. ثم وضع الورقة بجانب أخواتها على لوحة معلقة. بالقلم ذاته كتب على ورقة مزخرفة: سامحيني يا أماه، أروع رجولة أطمح إليها هي تلك التي في الجنة تحت قدميك، أحبك جداً...

ثم وضع الورقة على الكنبة التي تجلس عليها والدته كل صباح وانطلق إلى جامعته والوجود حوله يصدح بكلمات أمه التي تقولها عندما تهدأ بعد كل فورة غضب: رضي الله عنك يا ولدي، قلبي من أعماقه يرضى عنك، أحبك وأحزن عندما أصرخ في وجهك، لكنه قلب الأم يا ولدي.

تناغمت تلك الكلمات مع نسمات الربيع حديثة العهد لتنعش قلب جواد وترسم ابتسامة على وجهه، ابتسامة احتفظ بها ليقابل بها زملاءه الذين

كانوا ينتظرونه ليساعدهم في حل مسألة مستعصية. جواد لا يحب فعل الخير فقط وإنما يبحث عن سعادته في فعل الخير، هذا ما أخبر به زملاءه بعد أن انتهى من مساعدتهم. بعد أن قالها أراد أن يفكر بوعي، أن يعي كل كلمة نطقها، لكنه أدرك بعد تفكير طويل أن المعنى لا يكتمل إلا بكلمات لم تُنطَق بعد، فخرج إلى حديقة الجامعة علّه يعثر على تلك الكلمات مختبئة بين براعم الأزهار أو متمايلة مع العشب المرصّع بالندى.

دخل جواد الحديقة بعد أن خلع عند بابها كل ما يشغله عن ذكر الله، وبمجرد دخوله فيها صُبِغ بصبغتها، فإذا بذهنه صاف صفاء سمائها وصدره منشرح بنسماتها وقلبه يرفرف مع طيورها. في وسط الحديقة وجد مقعداً مستنداً إلى الشجرة التي كانت قد تنفست أنفاس أجداده وهناك جلس، أخرج من حقيبته دفتراً صغيراً وقلماً وبدأ بحثه عن الكلمات باسم الله الرحمن الرحيم ثم كتب:

بعد فعل الخير يتنعم قلبي بالرضى إلا بقعة صغيرة منه، يبدو أن فيها ما يدعو للقلق ولعل ما قلته اليوم لزملائي خرج منها على شكل فلتة لسان وكأن كل كلمة لها دلالة...

البحث عن السعادة في فعل الخير...

ما هي السعادة؟ ولم البحث عنها؟ وهل يصلح هدفاً لفعل الخير؟

لو كانت الجملة التي خرجت من فمي "أحب لكم ما أحب لنفسي" أو "إن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه" لما بحثتُ عن دلالات ولا عن كلمات غير منطوقة، فهي كلمات دلالاتها ناصعة علمنا إياها خير البشر عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فيها إخلاص للنية وتعاطف صادق، المتأمل يجد فيها أخوة حقيقية في الله تسري في شرايين الجسد الواحد الذي ينتمي إليه المسلمون.

أما جملتي فتفوح منها رائحة أكاد أجزم أنها الأنانية، وكأن هنالك مكاسب شخصية من فعل هذا الخير، فإذا كان الأمر كذلك فما هي هذه المكاسب؟

وكعادتها تضبط ساعة جواد عقاربها على أقصى سرعة كلما أراد أن يبوح لورقته الصديقة عما في قلبه. توقف عن الكتابة ولم يتوقف عن التفكير وفي طريقه إلى الجامعة تذكر مقولة سمعها مرة أن الإنسان يتغير من خلال علاقاته مع الآخرين وأثناء انتظار المحاضِر أجرى ببصره جولة استطلاعية على زملائه وعلى نفس الورقة كتب اسم كل زميل يشم من علاقته معه ذات الرائحة التي فاحت من مقولته الصباحية وبدأ بحامد فهو على موعد معه في المساء.

وفي المساء كان القمر يختبئ خلف الأبنية القديمة ثم يطل من بينها ثم يختفي مجدداً وكانت الأرصفة تعكس الأضواء، هي ليست من الرخام ولكنها عندما تبتل بالمطر تبعثر الأشعة في كل مكان، أصوات السيارات كانت حلوة متناغمة والسبب في ذلك ابتلال الشوارع بالمطر أيضاً، إنها مدينة جواد في أبهى لياليها، وليلة كهذه لا تستطيع أن تفلت منه حتى عندما يكون غارقاً في امتحاناته. ولتكتمل سعادته في تلك الليلة لا بد من رفيق يعبر له عن عشقه لمدينته الدافئة ولا بد أن يكون الرفيق من أولئك الذين يشعر معهم بالأمان.

حامد هو رفيق الليالي الماطرة بامتياز، شاب هادئ، كثير الصمت مجيد الإنصات، لا يمل من أحاديث جواد المتتالية أو على الأقل لا يعبر عن ملله منها، وأجمل ما فيه الصفات التي لا يمتلكها، لأنه لو امتلكها لآثر جواد المشي في طرقات مدينته وحيداً على مرافقة من يسلبه أمان تلك الليلة بسبب شعوره بالانجذاب نحوه لامتلاكه تلك الصفات وما يحمله هذا الشعور من آهات. هذه الصفات محفوظة على ورقة مخبأة في أحد سراديب غرفة جواد، فوق سريره لوحة معلقة مرسوم عليها قفص مفتوح

الباب وبداخله طائر مطموس الملامح وخلف اللوحة ترقد تلك الورقة وعليها كان قد كتب جواد في أحد أيام الاكتئاب العصيبة:

جاء ليسحقني من جديد...

كلما علم أني رممت نفسي بعد آخر ضربة يأتيني مجدداً...

مرة متمثلاً في زميل، مرة في أستاذ...

وإذا حبست نفسي في غرفتي لأقي نفسي منه جاءني في المنام...

ذنبي الوحيد أني طلبت منه ذات يوم بكل براءة أن يتمثل لي في ذلك الشخص الذي يخرج من المرآة كل صباح...

ومنذ ذلك اليوم أعلن الحرب...

بعفويته الساحرة يلجمني...

بصوته الرجولي الواثق يصمني...

بقامته الشامخة يطرحني أرضاً...

وبمنكبيه الذين يحجبان الأفق يجعلني أتلاشى...

رايتي البيضاء رفعتها...

لكنه مصرّ أن يجعلها كفني...

ولولا أن بهلاكي قطع صلتي بربي لسلمته نفسي...

لا والله... لا والله... لا والله...

لن أسلمه نفسي...

فليتخذ من جسدي مطعناً... لا ضير...

أما روحي فلن يمسها بسوء...

فلقد استودعتها عند ربي...

عسى ربي أن يطهر قلبي...

ويقبل توبتي...

ويتوفاني وهو راض عني...

بعد أن قرأ جواد ما كتب على الورقة صباحاً تقلد الوعي وارتدى سترته ذات القبعة، المظلة ليست مستحبة عنده على الإطلاق على الرغم من حبه لإيقاع حبات المطر عليها إلا أنه لا يحب حجبها للجزء العلوي من المشهد الأخاذ.

كان اللقاء مع حامد في ذات المسجد المعلق فيه قلب جواد، مع غروب الشمس تشرق مشكلة حياته من جديد ففي صلاة المغرب يكثر المصلون من أقرانه، فيخاف أن يتسلل سالب أمنه الموصوف في الورقة المخبأة ويتمثل له في أحد المصلين، لكنه سرعان ما يقول في نفسه "كلا إن معي ربي سيهدين" فالمسجد ليس المكان الذي يستطيع أن يشن عليه الحرب فيه وتحليق روحه عند سماع القرآن الكريم تجعله قادراً على الانتصار فيها إذا ما دارت رحاها، وليس جواد بالساذج الذي يصغي للشيطان عندما يحاول أن يقنعه أن نجاته في الابتعاد عن المساجد.

بعد أن قُضيت الصلاة بحث جواد عن حامد بنظرات خاطفة، فشرارة الحرب تبدأ بنظرة، وعندما وجده توجه إليه مركزاً بصره عليه ومتحلياً بابتسامته المعهودة التي اعتاد أن يتسلح بها كوسيلة دفاعية يقوي بها نفسه ويحاول أن يثبت بها لخصمه أنه ليس بخائف.

جواد: السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، كيف حالك يا حامد؟

حامد: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته، أهلا يا جواد، الحمد لله أنا بخير، وأنت؟

جواد: الحمد لله، كيف تتوقع أن أكون في ليلة كهذه؟

حامد ضاحكاً: حلمي أن أعرف سر حبك لهذه الطرقات القديمة التي ستصبح قريباً غير صالحة للمشي.

جواد ضاحكاً: أنت قلتها إنه سر، نصيحتي لك أن تحلم بشيء آخر، أما هذه الطرقات فلن يزيدها عدم صلاحيتها للمشي إلا جمالاً.

يبدو أن سحر تلك الطرقات لم يسلب لب جواد فقط بل سلبه وعيه أيضاً وقدرته على رؤية الكلمات التي بحث عنها بشغف في حديقة الجامعة صباحاً، كانت تطل بأعناقها من بين الأبنية وتقفز أمامه مع كل خطوة وتصرخ في وجهه: جواد انتبه، حامد حزين، أنت تعلم أن والديه على وشك الطلاق، حامد بحاجة إليك الآن، توقف عن التغزل بمدينتك الحبيبة قليلاً، واسأله باهتمام عن وجعه، ألا تتذكر أنك نويت بهذا اللقاء أن تساعده وتقف بجانبه لأنك تحب فعل الخير؟ حقاً إنك تبحث عن سعادتك أنت في فعل الخير، لكن أرجوك لا تتسبب بتعاسة الآخرين.

ولأن جواد لم يستمع لأي من تلك الكلمات أوجد تعاسة حامد قبل أن يجد سعادته هو عندما قال واعظاً:

حامد، بصراحة أنت تبالغ في خوفك، ما المشكلة إذا افترق والداك، أنت وإخوتك لستم أطفالاً وتستطيعون أن تعتمدوا على أنفسكم، هكذا هي الحياة. انس الموضوع واستمتع معي برائحة المطر.

قبل أن يكمل حامد تنهيدته قاطعها جواد متابعاً:

الطلاق ليس نهاية الحياة يا حامد، ربما يكون بداية موفقة لكل من والديك.

حامد يعرف جواداً جيداً، هذه ليست أول مرة يشعر بالخذلان معه لكنه يلجأ دائماً إليه لأنه لا يثق بغيره. شعر حامد أن هذه المرة قد تكون الأخيرة فأراد أن ينصح أخاه رغم جراحه النازفة قائلاً:

جواد أنت تعلم أني أحبك، ولأني أحبك أحب لك الخير كما أحبه لنفسي، ما سأقوله الآن لا أبتغي منه إلا نفعك فاعذرني على صراحتي. عندما أتكلم معك أشعر بنوع من انقطاع الاتصال بيني وبينك، وكأني أتكلم مع شخص بالهاتف أسمعه ولا يسمعني، سألته سؤالاً فأجابني على سؤال آخر، حاولت أن أوضح له ما أقصد لكنه لم يسمعني بل واصل الحديث وكأنه يتكلم مع نفسه. في الحقيقة هذا ما أشعر به أحياناً عندما نكون معاً.

رد جواد بحدة: ربما كان سؤالك غير واضح.

حامد: ربما، لكني أحس أنك تتكلم من أجلك أنت لا من أجلي أنا على الرغم من أن الموضوع يتعلق بي.

حامد لم يكن من بين زملاء جواد الذين ساعدهم في الصباح، لكنه أثار في نفسه ذات الأسئلة التي أقلقته حينها، كان جواد واعياً جداً لما قاله حامد لكن ردة فعله لم تكن واعية عندما أجابه بحدة أكبر من سابقتها:

لقد صدمتني يا حامد، في حياتي كلها لم يقل أحد لي ذلك.

وأسر في نفسه بقية الكلام الذي اعتاد أن يخدر به ألمه ويثبت لنفسه أن الخلل في العلاقة دائماً عند الآخرين:

من الصعب على حامد أن يفهم حقيقة ما يحصل مع والديه لذلك رفض ما قلته له واتهمني بأني لا أفهمه، ليس كل الناس عندهم القدرة على تقبل الحقائق المؤلمة.

فرد حامد على ما قاله جواد: أنا آسف يا جواد، لم أقصد أن أسيء إليك، والله ما أردت إلا خيراً.

جواد: لا عليك يا حامد، الحياة وجهات نظر، يجب أن أعود إلى البيت وأنام، عندي غداً محاضرة على الثامنة.

حامد: بالتوفيق يا جواد، أراك غداً إن شاء الله. السلام عليكم.

جواد: وعليكم السلام.

في طريق العودة حاول جواد أن يفكر بوعي لكنه كان في حيرة من أمره، كيف استطاع حامد أن يسلبه أمنه بهذه السهولة؟ كيف استطاع أن يصمه عن سماع المطر ويفقده دهشته بمنظر القمر؟ عندما قرر البحث عن الكلمات غير المنطوقة صباحاً لم يكن يعلم أنها قد تكون مؤلمة، وفي الحقيقة ما جعلها صعبة المنال إلا كونها مؤلمة.

من المؤلم أن يعترف جواد أنه وحيد حتى مع أولئك الذين يشعر معهم بالأمان، العلاقة الوحيدة التي يجيدها هي تلك التي يستخدمهم فيها كأدوات. إنه يحتاجهم تماماً كحاجته لفعل الخير معهم ليقنع نفسه أنه جدير بالقبول والمحبة من الآخرين. المؤلم أكثر أنه بهذه الطريقة لا يستطيع أن يقيم علاقة صحية حتى مع نفسه، ففي بحثه الدائم عن القبول يعيش على خشبة المسرح مؤدياً الأدوار التي تضمن له هذا القبول تاركاً نفسه خاوية غير مشبعة الحاجات.

مع اشتداد الألم تراءت تلك الكلمات أمام جواد، حاملة معها أسئلة ملحّة: إذا كانت حياة جواد مجرد لعب أدوار على خشبة المسرح، فمن هو جواد؟ ماذا يحب؟ ماذا يكره؟ ألا يجب عليه أن ينزل من على الخشبة إلى حياته الحقيقية إن كان يريد حلّاً لمشكلته؟ وما الذي يحول بينه وبين هذا النزول؟

قبل دخول البيت كان عليه أن يرتدي الابتسامة التي يستطيع أن يقنع الجميع من خلالها أنه بخير إلا والدته التي تجيد قراءة عينيه أكثر من قراءة نفسها، لتنهال عليه بالأسئلة اطمئناناً عليه وترهقه بنظراتها

الحزينة، لذلك أسرع بالدخول إلى غرفته، قابلته الورقة التي علقها صباحاً وعندما قرأ كلمة وعي أدرك أنها تحمل معها الكثير من الألم، لكنها كالدواء مر الطعم حلو الشفاء.

وجد جواد نفسه وحيداً أمام تلك الأسئلة الملحّة فأمسك بهاتفه واتصل برقم الطبيب دون تردد، لكنه لم يجب عليه للأسف. ظل الليلة كلها يحاول الاتصال دون جدوى، وكذلك اليوم التالي.

في اليوم الثالث ذهب مسرعاً إلى العيادة ليجد على بابها ورقة كتب عليها اسم الطبيب وفوقه آية: {يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.}

ظل جواد واقفاً أمام باب العيادة يحاول أن يستوعب ما قرأ غير آبه بالمارة ولا خائفاً من رؤية أحد معارفه له واقفاً أمام عيادة نفسية. وعندما أدرك الحقيقة قال بحزن: إنا لله وإنا إليه راجعون. دموعه التي لم يرها من البشر إلا الذي ذُرِفت حزناً عليه كانت متاحة لكل من مرّ بجانبه. لم تخطر على باله حينها مسيرته العلاجية، كل ما فكر به أنه لن ير الطبيب مجدداً. لم يقدّر الله تعالى لجواد أن يأتي إلى الطبيب مرة ثانية في هذه الدنيا فسأله أن يجمعه به في الجنة.

بحثاً عن طبيب جديد

حتى الورقة الصديقة تخذل جواداً أحياناً عندما يلجأ إليها ليبوح لها عما في قلبه فيخونه التعبير، بعد ساعات طويلة من البحث عن الكلمات وجد نفسه يبحث عن معان للحروف، رسم حرف الواو ونظر إليه متمعّناً ثم سأله: لماذا تصرّ أن تلتفّ حول عنقي وتخنقني؟ وعندما لزم الواو الصمت رسم بجانبه حرف الحاء ثم قال له وهو يلاحظ شبهه بالخنجر: يبدو أنك ستسانده بطعنة في ظهري إذا ما عجز عن خنقي. بحرف الحاء وصل جواد سنّين بارزين نحو الأعلى، كانا كالمنشار الذي يحاول تقطيع شرايينه. نظر جواد إلى الكلمة التي شكّلها من أدوات قتله، كانت تبدو بلا معنى إلى أن أضاف تحتها نقطتين.

وحيد...

كلمة تصف حال جواد بأحرفها وصفاً أبلغ من معناها، كانت تطارده أين ما حلّ، فهو مع أهله وحيد، مع أصدقائه وحيد ومع نفسه وحيد، طبيبه الذي وجد عنده نفسه توفاه الله تعالى فتركه وحيداً، وفوق كل ذلك اقترب موعد زفاف أخته حنان ليضيف وحدة جديدة. اقتربت اللحظة التي سيواجه فيها جواد تجاهل والده وحزن والدته بلا حنان.

كان الجميع يستعد لحفل الزفاف، حتى جواد رغم اكتئابه الذي كان يكبر يوماً بعد يوم، لكنّه أبى إلا أن يجود بابتسامته حفاظاً على جوّ الفرح. كان الجميع يعتقد أن خسارة وزنه المفاجئة كانت محاولة منه للظهور بأبهى صورة في البدلة الرسمية التي اختارها مع حنان، لكن الحقيقة أنه ما عاد يشتهي الطعام ولولا ألم في معدته عند كل جوع لما اقترب من الطعام أبداً.

وبالفعل بدا جواد بأبهى حلّة ليلة الزفاف وهو داخل مع والده إلى الصالة، كانت نظرات الإعجاب تحيط بهما ولو دخل المعجبون إلى قلبيهما

لأشفقوا عليهما. كان الحزن المختبئ خلف ابتسامة جواد يضيف بريقاً إلى عينيه، وتوقه إلى عالم الرجال الذي دخله بجسده وغاب عنه بقلبه يضفي عليه جاذبيّة خاصّة، واحمرار وجهه كلما قال أحد الآباء لوالده "إن شاء الله تفرح بزواجه قريباً" يكسوه ثوباً من الحياء، حتى تمنوا أن يكون هذا الشاب الوسيم زوجاً لبناتهم، ولو استطاعوا أن يقرؤوا البريق في عينيه ويدركوا أسباب جاذبيته ويشموا رائحة الخزي خلف وجهه الأحمر لما تمنوه أبداً، ولو استطاع جواد أن يقدّر ذاته ويرى نفسه كما رأوه هم رامياً خلف ظهره مشكلة حياته لاستحقّ هذا التمنّي.

انتهى الحفل، غادرت حنان مع زوجها مهند إلى شقة استأجرها لحين موعد السفر، وغادر جواد إلى بيت موحش بلا حنان، سيخلو هذا البيت حتى من زياراتها فموعد السفر قريب جداً، ستسافر مع زوجها إلى البلاد ذات الشوارع النظيفة إلا عند منتصف الليل في عطلة نهاية الأسبوع، البلاد ذات البيوت الأنيقة من الخارج الأوهن من بيت العنكبوت من الداخل. استودعها جواد عند الذي لا تضيع ودائعه ودعا لها بعد أن صلى ركعتين في ركن البيت الوحيد الذي لا تجرؤ الوحشة على الاقتراب منه، ركن الصلاة في غرفة جواد.

مرت الأيام وجواد يكابد وحدته، وخشبة المسرح تكاد تهترئ من سقطاته المتكررة كلما فشل في مغادرتها ومن دموعه التي ما تركت موضعاً فيها إلا وأغرقته ومن ثقل اكتئابه الذي كان يكبر دون أن يقف عند حد.
أصبحت علاقته بحنان رقمية لكنها ظلت قادرة على أن تدفئ قلبه كلما أوشك على التوقف عن الخفقان. كانت أجمل رسالة وصلته منها عندما أخبرته بأنها حامل، ومنذ ذلك اليوم وجواد يعد الأيام منتظراً سماع صرخة أول حفيد في العائلة.

في يوم الولادة استسلم والدا جواد للنوم بعد أن أخبرهم مهند أن موعد ولادة حنان قد يتأخر بضع ساعات، أما جواد فبقي ملازماً ركن الصلاة

يدعو لأخته الوحيدة حتى وصله الإشعار الذي انتظره طويلاً، تسجيل صوتي لأول صرخة ليوسف استقبل بها الحياة فملأ قلب خاله حباً.
استيقظ والدا جواد على صوت الصرخة حامدين الله عز وجل. وُلد يوسف في وطن غير وطنه ليرضع مع حليب أمه الغربة التي يخافونها جميعهم عليه، أما جواد فقد كان يخشى عليه غربة فوق غربة الأوطان ويريد له غربة ثالثة. الغربة التي أرادها له كانت الغربة عن الحرام والغربة التي خشيها عليه كانت تلك التي أبعدت خاله عن نفسه ورمته على خشبة المنفى حيث يُسمح له أن يؤدي كل الأدوار إلا دوره.

جاء يوسف بالبركة إلى كل من أحبه من أول صرخة، أما نصيب خاله منها فكان تجديد همته للبحث عن دوره المحروم منه فقرر أن يبحث عن طبيب جديد ليكمل له مسيرته العلاجية، لكن أين؟ وكيف؟ هل عليه أن يعيش على أمل أن يمر مع عبد الله في يوم ما بجانب عيادة ما ليخبره أن فيها طبيباً نفسياً سمعته طيبة؟ وماذا إن لم يأت هذا اليوم؟ وهل يعرف عبد الله كل الأطباء النفسيين أصلاً؟ قلّب جواد بين أوراق الممكنات بعد أن مزّق ورقة سؤال عبد الله عن طبيب نفسي آخر يعرفه، ولأن أطباء المدن الصغيرة لا ينشرون عناوينهم على صفحات الإنترنت، فلم يبق أمام جواد إلا القيام بجولة استطلاعية في الأحياء غير السكنية باحثاً عن مراده.

على جدار أحد الأبنية وجد جواد اللافتة التي كان يبحث عنها، دخل المبنى وصعد على درجه ذي الدرجات المكسرة فوجد باباً نصف مفتوح يشبه أبواب السجون وبجانبه اسم ذات الطبيب المكتوب على تلك اللافتة، تذكر المثل الشعبي القائل "المكتوب بائن من عنوانه" لكنه قال في نفسه "لا تنخدع بالمظاهر" فسمى بالله ودخل. بدت العيادة وكأنها مهجورة، أراد الخروج لكنه سمع صوتاً يقول "تفضل يا أخي"، أدار ظهره فرأى رجلاً على وجهه أثر النوم فقال له: عفواً على الإزعاج، يبدو أني أخطأت العنوان، فأجابه الرجل بكل ثقة وكأنه تعرض لذات الموقف بعدد شعرات

رأسه المتصارعة: لم تخطئ، أنا الطبيب الذي تبحث عنه، اتبعني. تبعه جواد إلى غرفة مظلمة فيها سرير يبدو أن الطبيب كان نائماً عليه فعاد المثل الشعبي ذاته إلى ذهن جواد ورد عليه بذات الإجابة. على كرسي خشبي كان آخر عهد لجواد بشبيهه في بيت جده القديم أجلسه الطبيب ثم خرج ليحضر طاولة صغيرة وجلس عليها ثم قال: ما مشكلتك؟ ثم ارتشف نصف فنجان قهوته محاولاً إجبار جفنيه على ترك مجال يرى من خلاله جواد.

شعر جواد أنه أمام نوع جديد من العلاج النفسي بالضحك، لكنه حبس ضحكاته التي اشتاق إليها خلال اكتئابه الطويل، لقد أصاب المثل الشعبي هذه المرة، قال جواد للطبيب: أنا آسف على إزعاجك دكتور، اعذرني لن أستطيع أن أتحدث عن مشكلتي اليوم. فأجاب الطبيب بذات الثقة: لا عليك، السلام عليكم. ثم استلقى على السرير ونام قبل أن يسمع من جواد: وعليكم السلام.

عندما خرج جواد كان يفكر جدياً ما إذا كان الطبيب قد تعمد فعل ذلك ليساعده، فقد خرج من عنده بنفس مبتهجة طاوية صفحة اكتئاب دام شهوراً بلحظة، هل علاج الاكتئاب بسيط لهذه الدرجة؟ أم أن جواداً كان يرى ظله المخيف وعندما جلس مع الطبيب رفع له المصباح ليريه حجمه الحقيقي؟ عاد جواد إلى العيادة، أخرج مالاً من جيبه ووضعه على الطاولة التي كان الطبيب يجلس عليها ثم خرج مستبشراً.

لم تكن المرة الأولى التي يغلق الله سبحانه وتعالى فيها باب العباد في وجه جواد ويفتح له باب رب العباد ليجد نفسه مندهشاً من الحب، وفي درب الحب قرر جواد أن يكمل مسيرته العلاجية معتمداً على الله وحده مستمداً منه القوة والثبات وإن لم يعثر على طبيب جديد. في درب الحب تتحول المحنة إلى منحة والبلاء إلى نعيم، في درب الحب تصبح الصلوات ملجأً والخلوات مغنماً ومع مسير كل خطوة يعبر الحب أميال.

أحبك يا الله، أحمدك على نعمك وأفضالك، قربني منك، لا تقطعني عنك، اللهم إن في قربي منك جنة، فلا تخرجني منها إلا إلى جنة الآخرة.

قالها جواد قبل أن يخطو أول خطوة في بحثه عن معالم رحلة الاغتراب عن نفسه التي لم يكن قادراً على تحديد لحظة سوقه فيها، كان يجزم أن الرحلة بكاملها محفوظة في ذاكرته لكنه يواجه صعوبة كبيرة في استحضارها. حفظ ذكريات الماضي في الذاكرة لا يضمن استرجاعها، فلا بد من وجود جسور تربط الماضي بالحاضر للوصول إليها وأقصر هذه الجسور هي المشاعر. لكن هذه المشاعر تشبه الذكريات وبما أن ذكريات الاغتراب مؤلمة فالمشاعر الموصلة إليها قد تكون غير محتملة للدرجة التي تجعل صاحبها يتحاشى عبورها معمقاً بذلك غربته.

أدرك جواد أن عليه أن يضع نهاية للهروب ويبدأ بعبور مشاعره حلوها ومرها ليصل إلى نفسه التي مازال يغترب عنها.

لحية

من يعرف جواد يعتقد أنه لم تنبت له لحية بعد، فالحلاقة عنده جزء من الروتين الصباحي لا تقل أهميته عن غسل الوجه، وهو بذلك لا يمنح لشعرات لحيته أي فرصة لترى النور. اعتياده على هذا الروتين لم يكتفي بجعل الانفصال عنه أمراً شبه مستحيل وإنما زجّ بحلاقة اللحية في باب النظافة الشخصية عنده.

الصراع بدأ عندما أحب جواد لحية عبد الله لحبه له وأصبح يرى فيها الجمال بعد أن كان يعتبرها قلة في النظافة الشخصية، فهل تذوقه للجمال أصابه التلف أم أن عليه أن يراجع تصنيفه لحلق اللحية في باب النظافة الشخصية؟ أم أن مشاعر مكبوتة تجاه لحيته كانت تقمعها وجاء عبد الله بوجهه المضيء ولحيته الجميلة ليفضح هذه المشاعر؟

في مجتمع مرتبط بسنة النبي عليه أفضل الصلاة وأتم السليم تُصنَّف فيه أدق تفاصيل الحياة تبعاً لها لا مكان لمثل هذه الصراعات، أما في مجتمع جواد الذي تندر فيه اللحى فإن جذورها ضاربة. لكن رسائل الرحمن لا يستطيع أي مجتمع على منع وصولها إلى جواد وتحريه للصدق يمنع أي هوىً من الوقوف في طريق الاستقبال السليم لهذه الرسائل.

عندما قرأ جواد وصية نبيه صلى الله عليه وسلم بإطالة اللحى لم يسارع إلى العمّ غوغل للبحث عن فتوى بجواز الحلق وإنما سارع إلى شطب حلق اللحية من باب النظافة الشخصية ووضعه في باب مخالفة سنة الحبيب صلى الله عليه وسلم، وبدون طول تفكير بدأ يومه التالي طارداً الحلاقة من الروتين الصباحي.

بقيت شعرات لحيته متأهبة ولم يرق لها رؤية النور إلا أثناء الاجتماع الأسبوعي في بيت جده. وفي أثناء الأحاديث مترامية الأطراف وقع بصر والدة جواد على شعرات لحيته المولودة حديثاً فراعها ما رأت وتسارعت

دقات قلبها واحمر وجهها وكأن ولادة لحية جواد إنذار خطر محدق ثم قالت لجواد بصوت مدو أخرس كل أفراد العائلة الكبيرة:

جواد، هل نسيت أن تحلق لحيتك اليوم؟

فرد جواد بعد أن انتقلت عدوى احمرار الوجه إليه والجميع يحملق فيه منتظراً إجابته:

لا يا أمي لم أنس ولكني أريد أن أطيل لحيتي كما ....

كان يريد أن يقول كما أمرنا النبي محمد عليه الصلاة والسلام ولكن والدته المصدومة قاطعته بكلمات ظاهرها الغضب والتحدي باطنها الهلع:

لن أسمح بذلك يا جواد، لن أسمح بذلك.

سادت بعدها لحظة صمت دامت عند جواد دهراً، شُلّت فيه رجلاه عندما أراد الهروب، أراد أن يهرب من بيت جده منتزعاً معه كل ذكرى له محفوظة عند أفراد عائلته الكبيرة، أراد أن يمحو من ذاكرتهم اسم جواد، شكله، تاريخ ميلاده ولحظة انعدامه، الانعدام الذي سيتكرر في كل لحظة تقع فيها عيناه على أعينهم، لذلك أراد الهرب. أما والدته فأرادت الهرب بابنها إلى البيت لتضمن أنها ستحمي نفسها من مشروع لحيته المرتقب.

لبس الاثنان الابتسامة التي يستطيع الطفل الصغير أن يرى من خلالها النار المشتعلة في قلبيهما وتابعا المشاركة الجبرية في الأحاديث العائلية مستعدين للقاء في البيت الذي حفظت جدرانه سجالات طويلة بدأت بخوف الأم وانتهت بتنازل الابن.

خوفاً منه على والدته وحرصاً منه على إرضائها دخل البيت مسرعاً إلى الحمام ممسكاً بشفرته معلقاً مشروعه محدثاً في وجهه عدة إصابات بعد أن قرر أن يوجه غضبه المكبوت إلى وجهه الذي رسم الخزي ملامحه.

وقبل أن ينام أرسل رسالة إلى عبد الله كتب فيها:

كيف حالك يا صاحبي؟ ما مشاريعك غداً؟

وعندما استيقظ قرأ رد عبد الله:

أهلاً جواد، لا مشاريع في المساء، تعال إليّ بعد صلاة العشاء لتشرب أطيب كأس شاي طبخ يديّ.

وبعد نهار طويل مثقل بالمهام ونظرات الناس المستغربة من الجروح الصغيرة على وجه جواد والتي تود أن تقول: ما الذي يجعل جواد يستخدم شفرات الحلاقة إذا لم تظهر لحيته بعد؟ وصل جواد إلى الصديق الصدوق الذي تحاشى النظر إلى الجروح على وجهه. عبد الله عنوان للرقي، يستطيع قراءة القلوب بسرعة أكبر من سرعة النظر فيتخذ القرار المناسب ويتحكم بزمام لسانه وعينيه حتى لا يجرح أحداً من الداخل.

عبد الله: أهلا بالجود، الطبخة على النار، سأحضرها وآتي إليك.

جواد محاولاً الضحك: ممتاز، أتضور عطشاً.

أقبل عبد الله بنور ملأ أركان الغرفة المتواضعة وبسكينة ملأت قلب جواد بالأمان، ومعه إبريق وكأسي شاي. وفي أثناء صبه للشاي كان جواد يلتهمه بعينيه البريئتين الفضوليتين التهام الطفل لأبيه. كان يراقب الرجولة وهي تقطر من لحيته التي غيرت مفاهيم جواد فأصبحت بطلة قصة الأمس.

عبد الله مقدماً كأس الشاي لجواد: تفضل يا جواد، اشرب وادع لأخيك.

أمسك جواد الكأس بيده، استطاع أن يميز دفء يد عبد الله المخزن فيها من سخونة الشاي مستمداً الأمن من خلاله ثم ارتشف مع الشاي قطرات الرجولة المتقطرة من لحيته ولزم الصمت متأملاً. تحت سكون هذا

الصمت استطاع عبد الله أن يسمع تلاطم أمواج عميقة وأن يدرك صلتها بالجروح على خد جواد فقال بحذر:

ما نوع شفرات الحلاقة التي تستعملها يا جواد؟

فكانت مقولته كافية لجعل الأمواج العميقة تخرج إلى السطح ليبوح جواد بكل ما في قلبه:

العطل ليس بالشفرات يا عبد الله، العطل بالحلاق، كدت بالأمس أحلق وجهي مع لحيتي، لم أستطع أن أتمالك غضبي.

عبد الله: ما الذي أغضبك إلى هذا الحد يا جواد.

جواد: لا أريد أن أوجع رأسك بقصصي.

عبد الله: أنا أخوك يا جواد، نحن ننتمي إلى الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، كما أخبرنا حبيبنا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. إذا كنت تشعر برغبة في الحديث فأنا كلي آذان صاغية وقلبي معك.

جواد: ونعم الأخ يا عبد الله، صداقتك نعمة عظيمة، أسأل الله تعالى أن يجزيك عني كل خير. هل تعلم يا عبد الله أن لحيتك هي سبب كل ما حدث؟

عبد الله مستغرباً: كيف؟

فقص عليه جواد قصة الأمس وعندما وصل إلى الحبكة حيث قالت والدته ما قالت طأطأ رأسه وضم ذراعيه إلى صدره منكمشاً على نفسه وقال بصوت محمل بالآهات:

أشعر أني أغرق في الخزي لأصبح من المنسيين، لا أستطيع أن أتحمل هذا الشعور، إنه ينهشني، يخنقني، يعدمني، كيف سأقابل أفراد عائلتي الكبيرة بعد هذا الموقف؟ نظرة من أحدهم قادرة على أن تجعلني أتلاشى.

كان عبد الله ينظر إلى جواد ويسمعه بقلبه قبل عينيه وأذنيه فاتّكأ جواد عليه محاولاً عبور جسر الخزي الذي أوصله إلى ذكريات في الماضي لم يتعرف عليها من قبل.

من ضفة الماضي كان ينبعث صوت غير واضح يبدو أنه صوت والدة جواد وعندما وصل إلى منتصف الجسر أيقن أنه هو، أصغى إليه فإذا بها تقول: "يا أبا جواد لقد أصبح ابننا رجلاً"، اقترب منها أكثر فإذا بعينيها الحزينتين تنظران إليه وترسلان رسالة تقول فيها: "أشعر بالذعر يا ولدي، لا تتركني لا أستطيع العيش بدونك"، موقظة في جواد ذاك الصراع المضني من أجل التوفيق بين ما يرى من حزن في عيني والدته كونه أصبح رجلاً وما يسمع من كلمات ظاهرها الاحتفاء بهذا الحدث ليجد نفسه ممزقاً غارقاً في الخزي مما ألحق بوالدته من أذىً بعد أن أصبح رجلاً. كم كانت تلك النظرة شبيهة بنظرتها حين علمت أنه يريد إطلاق لحيته وكم كان الخزي عنده شبيهاً بشعوره في كل مرة كان يحلق بها لحيته خشية أن تراها والدته.

ثَقُل الخزي على جواد، أراد النجاة بنفسه والعودة إلى حاضره لكن الخزي كان يدفع به إلى ذكريات الطفولة وإذا بجواد الصغير مستلق على ظهره متعرفاً على جسده بحب، وضع يده على عينه ثم على أنفه ثم أنزلها باتجاه فمه ومنه انزلقت على رقبته نحو صدره فبطنه وعندما وصلت إلى عنوان ذكورته عاد صوت أمه مدوّياً وهي تقول له: هذا عيب، أبعد يدك، فإذا بذات الخزي يهجم على قلبه و إذا بيده ترتد مرتعدة مقسمة ألا تقترب من هذا الشيء الغريب بعد الآن، يده التي أصرت على أن تتعرف على الحبل السري عندما كان جنيناً على الرغم من أنه لم يرافقه إلا تسعة

شهور، هي ذاتها التي أقسمت ألا تقترب من عضوه الذي سيرافقه حياته كلها، ومنذ تلك اللحظة بدأت غربة جواد.

كاد جواد يختنق لولا أن أعانه عبد الله على العودة إلى الحاضر.

عبد الله: تفضل يا جواد.

نظر جواد إلى عبد الله فإذا به يقدم له منديلاً بعد أن سالت الدموع على وجهه، مسحها ثم قال:

تعبت من نظرات الحزن في عيني والدتي، أحزن عليها وعلى نفسي، ما عدت أطيق هذه النظرات التي تسلبني القدرة على التعبير عن نفسي وتجبرني على أن أبقى طفلاً. كلما حاولت أن أتنفس استقلالي عنها جاءتني تلك النظرات لتعيدني ذاك الطفل المهذب المطيع.

أراد جواد أن يفتح قلبه أكثر وأن يبوح لعبد الله بمعلومات أكثر، كان على يقين أن عبد الله لن يتخلى عنه إذا علم مشكلة حياته، لكن شيئاً ما كان يعقد لسانه عن الإفصاح بها، كان ممتناً لتعاطف عبد الله معه ومساعدته له على عبور مشاعره والوصول إلى ذكريات الماضي، لكنه لم يرد أن يلقى منه معاملة خاصة تعمق الهوّة بينه وبين مجتمع الرجال، أراد جواد أن يعبر عن ضعفه كرجل، وأن يتقبله عبد الله كرجل على ما فيه من ضعف، لذلك توقف عن الحديث.

عبد الله: أفهمك يا جواد وأعتقد أن موضوع اللحية سيساعدك إن شاء الله على التقرب من والدتك وفهم مشاعرها ومعرفة سبب الحزن في عينيها، ستستطيع من خلال إقناعها بإطلاق لحيتك أن تتحرر من هذه النظرات وسلبها لإرادتك.

جواد: أعتقد أنه من المستحيل إقناعها، من المستحيل تغيير نظرتها عن اللحية، لا أعتقد أن أمي مستعدة للتغيير.

عبد الله: وأنا أعتقد أن التغيير أمر صعب على كل أم في عمر أمهاتنا، ونحن إن أردنا أن تتغير والدتك فما نرجو ذلك إلا لحبنا الخير لها وعندما نعجز عن ذلك فلا يبقى لنا إلا الحفاظ على رضاها والوصول إلى هدفنا بما لا يغضبها. اسألها يا جواد عن سبب رفضها ثم تكلم معها بلين لتبدد مخاوفها وبإذن الله ستقبل وترضى عنك وعن لحيتك.

جواد: أتمنى ذلك يا عبد الله، أتمنى ذلك.

خرج جواد من عند عبد الله منهكاً من عبور مشاعره واستحضار ذكريات ماضيه، مدركاً ألا سبيل لحل مشكلته إلا بهذا العبور الذي من خلاله استطاع أن يفهم سبب مشاعر الخزي التي تنتابه مع والدته وعلاقتها بالماضي، لقد استقرت عنده فأصبحت تخرج دون استئذانه، وباعترافه بها وبتقبلها سيتمكن في المستقبل من تكرار التفكير الواعي في كل موقف مع والدته والذي بدوره سيغير مشاعره ويمكنه من ضبط انفعالاته. عاد جواد إلى بيته، صلى ركعتين حمداً لله عز وجل ونام استعداداً لاستقبال يوم البركة.

في صباح كل جمعة يكون جواد على موعد لاستقبال الكنوز التي لا تفنى، من سورة الكهف تنبع الكنوز نبعاً ليجد القارئ نفسه حائراً بأيها يندهش أكثر، وجواد يبدأ من السبت بعدّ الأيام الفاصلة بينه وبين هذا الموعد وكأنه يأتي لأول مرة.

بعد أن تلا آخر آية كانت نفسه مهيأة لكل خير، والدته كانت تجلس على كنبتها المفضلة وتستمتع بقهوتها الصباحية، أما والده فكان قد هرب إلى السوق على الرغم من أن قائمة المشتريات كانت فارغة مضيعاً على نفسه كنوز الآخرة مع ولده وكنوز الدنيا مع زوجته. ولعل غيابه كان الدافع الأول لجواد ليستجمع قواه ويصارح والدته. جواد قليل الكلام في البيت كثيره خارجه ويكاد يكون فاقده عند وجود والده في البيت.

جواد: لا حرمنا الله صباحاتك يا أماه.

أم جواد: رضي الله عنك يا حبيب أمك ومستودع سرها.

جواد: هناك أسرار جديدة إذاً؟

أم جواد: لا يا بني، الحمد لله، لا أسرار ولا مشاكل. أثق بك كثيراً يا جواد، لا أرتاح بالحديث إلا معك.

جواد: حماك الله يا أمي ورضاك عني.

أم جواد: رضي الله عنك يا ولدي رضىً لا نهاية له.

صمت جواد قليلاً مبتسماً لوالدته ومفكراً بما قالته ومتسائلاً: هل تقصد أمي ما تقول حقاً؟ هل هي بالفعل لا ترتاح بالحديث إلا معي؟ ألا ترتاح بالحديث مع والدي؟ كنت أعتقد أن مستودع سر المرأة زوجها. إشارات استفهام كثيرة كان على جواد تأجيل الجلوس معها على الطاولة لانشغاله بموضوع لحيته.

جواد: أمي، إذا سألتك سؤالاً فهل ستغضبين عليّ؟

أم جواد: لا يمكن أن أغضب عليك أبداً يا حبيبي.

جواد: لماذا لا تريدين أن أطلق لحيتي؟

أم جواد: لا تفتح معي هذا الموضوع أبداً، أنا راضية عنك مهما فعلت ولكن إذا كنت تريدني سعيدة فانس الموضوع.

جواد: أمي أرجوك، أريد فقط أن أعرف سبب رفضك.

أم جواد: يبدو أن سعادتي لا تهمك كثيراً.

وضعت أم جواد فنجان قهوتها الممتلئ نصفه على الطاولة وغادرت الغرفة تاركة جواداً مع علامات استفهام جديدة. أمسك دفتره الصغير وقلمه ونظر إلى اللوحة المعلقة فوق سريره ثم كتب:

إلى متى ستبقى حبيس قفصك أيها الطائر الحزين؟ أتراها آلام في رقبتك تمنعك من النظر إلى الخلف؟ أم خوفك من رؤية العالم من باب القفص المفتوح؟ لستَ وحيداً أيها الطائر، فصاحبك أصبح في الثالثة والعشرين ولا يملك الحق في التعامل مع لحيته بما يرضي خالقه عز وجل، باب قفصي مفتوح أيضاً، لكن خروجي منه فيه حزن أمي. ما عدت أطيق صحبتك أيها الطائر، أحلم باليوم الذي لا أراك فيه أبداً.

لم ينتبه جواد إلى القلم وهو يحفر ورقات الدفتر ليصل خطه إلى الورقة الخامسة. كان الغضب يشتعل في أطرافه لكنه أطفأه بالوضوء وذهب إلى صلاة الجمعة.

في الطريق إلى المسجد كان جواد يحاول أن يقاوم إشارات الاستفهام ويلزم الذكر، لكن الأسئلة كانت ملحّة جداً، كان يقترب كثيراً من اتخاذ قرار الهروب من قفص والدته حتّى لو كان الثمن حزنها متذرّعاً بأن مشكلته لا تُحَلّ إلا بالهروب، وبقاء مشكلته أسوأ من حزن أمه، كان خطيب الجمعة في طريقه إلى المسجد أيضاً ومعه ورقة كتب عليها رؤوس أقلام خطبته التي تبدو وكأن الله سبحانه وتعالى ألهمه إياها حماية لجواد من اتخاذ قرار خاطئ. صعد على المنبر وبدأ خطبته بعد حمد الله عز وجل بالآية الكريمة:

{وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً}

جناح الذل من الرحمة كان الحلقة المفقودة في سلسلة أفكار جواد وعندما تذكرها أعاد ضبط أفكاره من جديد، ودعا الله عز وجل أن تنجح محاولته التالية وبمجرد دخوله إلى البيت اقترب من والدته وقال لها بصوته الحنون:

أمي أرجوك أخبريني ما المانع من إطلاق اللحية؟

كان ينظر إليها وعيناه تقولان: أمي أنا منهك، أرجوك ارحميني، أرجوك.

أشفقت أم جواد لحاله فقالت له:

يا بني أخاف أن تهمل لحيتك إذا أطلقتها وتصبح من أولئك الزاهدين الذين يهملون أشكالهم، أي فتاة ستقبل أن تتزوجك حينها؟

لم يتوقع جواد أن يكون خلف الهلع الذي رآه في عيني والدته في بيت جده سبب كهذا، لكنه أراد أن يصدقها، فسبب كهذا يمكن له أن يتعامل معه أما السبب الذي كان يعتقده جواد فلا مفتاح لبابه إلا ذاك الذي تملكه والدته والذي نسيت أو تناست أين خبأته.

جواد: هل رأيتيني مهملاً شكلي يوماً؟

أم جواد: اللحية ستجعلك تهمله.

جواد: صدقيني يا أمي سأعتني بها وستحبينها جداً.

كان لا بد في هذه اللحظة من الاستعانة باستراتيجيات الطفولة لتحقيق الأهداف فسارع جواد إلى تقبيل جبين والدته قبل أن يتيح لها الفرصة أن تتكلم ثم قال لها:

وافقتي، أليس كذلك؟ شكراً يا أمي. شكراً جزيلاً. أحبك جداً جداً جداً.

ومع بعض الحركات البهلوانية المضحكة لوالدته أسرع جواد إلى غرفته وجهز نفسه للخروج لشراء مشط للحيته المنتظرة، ووالدته واقفة تحاول أن تحبس ضحكاتها وتناديه: جواد تعال لم أوافق بعد. وهو يجيبها: لن أتأخر يا أمي.

صفحة جديدة مع المرآة

اعتنى جواد بلحيته أيما اعتناء، كان يراقبها وهي تنمو وكأنها نبتة وعندما أصبح المشط قادراً على الاختفاء داخلها أدخل أسنانه فيها وهو ينظر إلى المرآة فاجتاحه شعور غريب، هو غريب عن غربته، أصيل أصالة لحيته، الأصالة التي آن لها أن تستعيد مجدها بعد سنين من الضياع في المنفى، كان مدركاً أن العودة إلى الوطن الذي لم يدخله بعد لن تكون بإدخال مشط في لحيته، لكن تلك اللحظة بثت فيه حياة جديدة عنوانها وداعاً أيتها الغربة.

نظر إلى اللوحة المعلقة فوق سريره، ثم قال للطائر المحبوس فيها: يبدو أن لحظة الفراق قد حانت. نزعها فإذا بالورقة المخبأة خلفها قد سقطت أرضاً، انتشلها، قرأ ما فيها ثم مزقها وهو يقول:

لن تسحقني بعد اليوم...

لا قامتك الشامخة ولا منكباك العريضان سيسلباننني حق العودة إلى وطني...

ومنذ أن زادته لحيته وسامة فتح جواد مع مرآته صفحة جديدة وغدت أبعد اللحظات عن غربته هي تلك التي يراقب فيها أسنان مشطه تتخلل لحيته. مع تلك الصفحة بدأ يتجرأ على مراقبة جسده الذي ملّ من الإهمال، كان يتحاشى النظر إليه لئلا ترميه تلك النظرة في بحر الخزي والشعور بالدونية لعدم اتصافه بصفات الرجل المثالية، ولئلا تكشف له تلك النظرة عن جبل المهام التي ستلقى على عاتقيه إذا أراد يوماً أن يحصّل بعض تلك الصفات وعلى رأسها ممارسة الرياضة.

أما اليوم فقد تحرك عنده الشوق القديم إلى عالم الرجولة باتجاه مختلف، فبعد أن كان يأخذ بيده إلى الحزن وزيادة الاغتراب عن أقرانه، بدأ يدفعه

بقوة إلى الانعتاق من المنفى ويرسم له طريقاً ريحه الأمل وعلى ضفتيه لافتات كتب عليها "ستصبح مثلهم" وفي نهايته نور ساطع ما إن أصاب شعاعه صدر جواد حتى حاول اختراقه وانتزاع قلبه لتزداد معه خفقات قلبه ويجد نفسه يركض نحو النور بقوة لم يصدق يوماً أن عنده جزء منها. صحيح أن الطريق كان ممزوجاً بعالم من الخيال، إلا أن جواداً كان عازماً على وضع قدمه في عالم الحقيقة وأن يواجه التحديات مستعيناً بالله عز وجل مستمداً منه العون سائلاً إياه أن ينير دربه ويخلص نيته.

خرج جواد محلّقاً و الهمة تعلو وجهه، متجر الأجهزة الرياضية كان وجهته، كان يرغب أن يشتري كل ما فيه وأن ينقله معه إلى المنزل وأن يمارس كل التمارين على كل الأجهزة بنفس الوقت، لم يكن يمشي بشكل عادي، كاد يهرول، يقفز، يركض بأقصى سرعة يستطيعها وعندما وصل إلى واجهة المتجر ورأى الأجهزة المعروضة والرجال الذين يجربونها أطلّت غربته برأسها من جديد ممتصة كل ما فيه من حماس، ضاربة بحواجز بينه وبين الدخول، أما قلبه فكان على موعد مع اجتياح جديد من الخزي، علم جواد أن عليه عبور هذا الخزي، جلس في الحديقة المجاورة للمتجر، أغلق عينيه و عبر إلى الطفولة.

كان يوماً غير اعتياديّ رغم أن جواداً كان مع أمه في زيارة نسائية كالعادة، لكن هذه المرة كان يوجد صبية غيره ولعبوا معاً كرة القدم في الحديقة. لقد كانوا صبية لطفاء غير أولئك الذين تعود أن يراقبهم من بعيد ويخاف الاقتراب منهم وهم يلعبون كرة القدم، قال في نفسه "لقد فعلتها أخيراً، إنني أركض مثلهم تماماً وأركل الكرة بقوة مثلهم تماماً وأرفع يديّ وكأني أحلق عند تسجيل كل هدف، مثلهم تماماً"

وعندما نادته أمه ركض إليها وهو يصرخ "سجلت هدف، سجلت هدف" فقاطعته قائلة "تعال أر صديقاتي رقصتك الجميلة" فقال لها مستعجلاً "لم أنته من اللعب بعد يا أمي" واستدار ليركض ويتجه نحو الفريق، فإذا

بيدها المرتعشة تلتقط يده وتضغط عليها بقسوة، نظر إلى عينيها وقرأ ما تقولان "إما كرة القدم وإما حبي"

ولو كان باستطاعته قراءة الحقيقة لوصل من خلال عينيها إلى تلك الغرفة المظلمة القابعة في أعماق قلبها والتي تشبه كل شيء إلا بيتها النظيف المرتب، ولا غرابة فلقد اعتادت أن ترمي فيها كل الحقائق المؤلمة وتوصد عليها الأبواب. لو كان باستطاعته أن يفتح أحد هذه الأبواب لسمعها تقول "بنيّ، أشعر بالوحدة هنا، مع كل هؤلاء النسوة أشعر بالوحدة، ذات الوحدة التي أتجرعها مع والدك صباح مساء. بنيّ أنت بطلي الصغير، لم تخذلني يوماً وأنا مع والدك فلا تخذلني اليوم، أرجوك إنها مجرد رقصة، رقصة صغيرة أستطيع من خلالها أن أفتخر بطفلي المميز وأجد لنفسي مكاناً بين هؤلاء المتملقات"

ولأن التنازل عن أحلامه لإزاحة أحزان أمه أصبح له عادة، ترك الرفاق، لم يلتفت إليهم أبداً عندما كانوا ينادونه. وما لبثوا أن تابعوا اللعبة بدونه عندما أصبح في صالون النساء. كانت هزيمة ساحقة بعد انتصار، تركته أمه في وسط الصالون وعادت إلى عرشها لتتباهى بإحدى ممتلكاتها أمام صديقاتها وتجد لنفسها مكاناً مرموقاً بينهن وهي تتغزل بالتفاحتين الحمراوين على وجنتيه من الخجل، وليتها علمت ما معنى هاتين التفاحتين.

اشتغلت الموسيقى بأعلى صوت حتى شعر بأنها مطارق تدق أذنيه وتخترقهما لتخدر عقله وقلبه وتسحق كل مشاعره وكأنه لا شيء، لا شيء سوى دمية راقصة تشرئب أعناق سيدات الصالونات لمراقبة حركاتها الطفولية غير المنسجمة مع ما نجت به من مظاهر ذكورية، فتضحك إحداهن باستهزاء وتستنكر الأخرى بازدراء. ولولا تخدير مشاعره لما استطاع أن يلبث ثانية واقفاً على قدميه في هذا المشهد المريع الذي لم تر منه أمه شيئاً أبداً، لأنها لم تكن حينها ترى إلا نفسها.

علت الضحكات على صوت الموسيقى الذي كان قد طغى على آخر صوت يعيده للحياة، صوت الصبية في الخارج. أحسّ حينها أنه يلبس ثوباً مطرزاً مثلهن، لكنه كان ضيقاً جداً، كان يعصره عصراً ويصر على أن يخرج منه آخر قطرة ذكورة ملتصقة به تأبى السقوط. وبعد أن سقطت كالدمعة توقفت الموسيقى وجاءت أمه لتكرّمه بقبلة على ما حققه لها من إنجاز عظيم، ثم قالت له بلغة سيدات الصالونات المصطنعة "اذهب والعب مع أصدقائك الآن"

كانت كلماتها كالصاعقة التي غيبته عن وعيه دون أن تطرحه أرضاً، كان لسانه المنعقد يود أن يهمس في أذن أمه بصوت لا يكاد يستطيع الخروج "أمي أرجوك لا أستطيع الخروج، ضحكات هؤلاء النسوة أهون عليّ من رفض الصبية لي. لا أعلم إن كنت أستطيع أن أركل كرة بعد هذه الرقصة، لا أعلم إن كنت أرغب أصلاً في الخروج، أرجوك دعيني بجانبك حتى يأتي أبي ويعيدني إلى المنزل"

هذا ما كان يود لسانه قوله، لكنه تعود أن يقول أي شيء غير ما يود أن يقول، لذلك لبس قناع الطفل المهذب اللطيف وقال لأمه بصوت ظاهره البهجة "ألا تريدين أن أغني أمام صديقاتك يا أمي؟"

"بالطبع يا ولدي الحبيب" قالتها وكأنها حصلت على جائزة لم تكن تتوقعها. اختار أطول أغنية يحفظها ليحمي نفسه من الخروج فقد كان يحاول أن يتحاشى أيّ احتكاك مع هؤلاء الصبية.

لم يسعف طول الأغنية جواد فقد انتهت قبل قدوم والده ولم يجد أمامه إلا الخروج إلى الحديقة حيث الصبية، جلس بعيداً عنهم يراقبهم والأحمر يصبغ وجهه وثقل رأسه يغلقه ودمعاته المحبوسة تخنقه، كان يشعر أنه صغير جداً وينظر إليهم كما كانت تنظر إليهم تلك الزهرة في وسط الملعب ملتوية العنق بسبب ركلاتهم المتكررة لها. قبل دقائق كان يقول لنفسه "أنا مثلهم تماماً" والآن وبعد أن خسر تقديره لذاته أصبح يقول "يا

لهم من أبطال، يا لقوة أجسادهم، إنهم حقاً رائعون" ليرسم بذلك معلماً مهماً من معالم غربته وعنوانه "عندما تخسر تقديرك لذاتك فأنت على موعد مع الخزي والافتتان بهم"

انتبه أحد الصبية لجواد فناداه بصوت قوي واثق:

جواد سنبدأ لعبة جديدة وينقصنا لاعب ليكتمل الفريق، تعال بسرعة.

كان حازماً جداً، لقد جعل هدير صوته والشرر في عينيه قلب جواد يخفق من الهلع فانطلق نحوه بسرعة وكأن جوارحه تحركها خيوط يحركها بيده، ما كان يعتقد أنه يستحق أن يكون فرداً من فريق كله أبطال، كان يشعر أنه سيكون وبالاً عليهم، لكن إرادته كانت مسلوبة.

بدأت اللعبة وجواد يتنقل بينهم هائماً على وجهه وكلما اقتربت منه الكرة كان يشعر أنها أكبر منه وأن عليه أن يركلها بجسده كله فجاءت ركلاته ضعيفة طائشة، ومع كل ركلة كان يتلقى زجراً من فريقه واستهزاءً من خصومه.

انتهت اللعبة بخسارة فريق جواد، جاءه ذات الصبي الذي دعاه إلى اللعب مشتعلاً غضباً، شده من قميصه وأصبح يصرخ في وجهه "أنت السبب، لقد جعلتنا نخسر بركلاتك الغبية" ثم دفعه دفعةً أسقطته أرضاً ليجد رأسه بجانب تلك الزهرة التي تحتضر والهلع يملأ قلبه من مشهد الأبطال يحيطون به وكأنهم يريدون القضاء عليه، ثم جاءه لاعب من الفريق الفائز منتشياً وقال له باستهزاء "عد إلى الصالون يا جواد، يبدو أنك تجيد الرقص أكثر" مضيفاً إلى غربة جواد معلماً جديداً عنوانه "لا تلعب معهم أبداً، ستخيّب آمالهم وسيسحقونك"

وقف جواد وقد ضاق عليه كل شيء، صدره المطبق على نفسه والحديقة التي لا تتّسع إلا للأبطال والصالون الذي فيه هلاكه. في تلك اللحظة كان بحاجة إلى صدر رجل حنون يرمي عليه رأسه لينفجر بكاءً ثم يبوح له

بكل شيء، لكن الرجل الوحيد القادر على منحه هذا الصدر كان قد علمه أن الرجال لا يبكون، فترك جواد دمعاته حبيسةً تحرق قلبه وغضبه موجهاً نحوه يقص أظفاره بأسنانه والحزن يعصف بكيانه، إلى أن جاء ذاك الرجل ذو الصدر بعيد المنال ليعيده وأمه إلى البيت فيسجن نفسه في غرفته ويهرب إلى النوم علّه يرى في منامه الرجل الذي يحلم فيه.

منذ ذلك اليوم وجواد يواجه العالم مترقباً استهزاء الآخرين به وهذا ما منعه من دخول المتجر، كان يشعر أنه أصغر بكثير من الرجال داخله وأنه بمجرد أن يضع قدمه داخله ستنهال عليه نظرات الاستنكار منهم وأن تجربة أحد الأجهزة الرياضية سيجعلهم ينفجرون ضحكاً، الأمر الذي جعله يعود إلى المنزل جاراً وراءه أذيال الخيبة.

نظر إلى جسده النحيل في المرآة وبدأ يبحث عن سبل بديلة لتقويته لا خطر فيها للتعرض لألم الخزي، ذات الاستراتيجية التي اعتاد جواد أن يدافع بها عن نفسه من الألم طيلة حياته.

نظر جواد إلى الأرض ثم بدء يهبط نحوها، استند على يديه المشدودتين دون أن يلامس جسده الأرض وهمّ بأن يجرب أول تمرين ضغط في حياته كلها لكن صوت خطوات أمه المقتربة من غرفته جعلته يقفز مسرعاً محاولاً التظاهر بالانشغال بأي شيء وإخفاء أنفاسه المتقطعة وخفقات قلبه المتسارعة. الآن عنده تفسير لسلوكه الغريب، إنه يكرر ذات ردود الأفعال التي استقرت عنده في اللاوعي منذ الطفولة، صحيح أنه لم يتغلب على مشاعره ولكن إدراكه لسبب السلوك وعلمه بكيفية تغييره هدآ من روعه ومنعا الخزي من أن يتمكن منه.

عندما ابتعدت والدته نزل مجدداً إلى الأرض وعندما كاد جسده يلامس الأرض إذا بصوت والدته المضطرب:

ماذا تفعل يا جواد؟

بقي جواد لبرهة على وضعيته على الرغم من صعوبتها لا سيما على من يمارس تمرين الضغط لأول مرة وأخذ يقول لنفسه:

إنها فرصتك يا جواد لتكسر هذا الحاجز.

ثم وقف وقال بصوت متقطع كأنفاسه:

أمارس بعض التمارين الرياضية يا أمي.

الأم: لكنك لست بدين وتحب المشي كثيراً، لم هذه الرياضات العنيفة؟

جملة كفيلة برفع مؤشر الغضب عند جواد إلى أعلى حد، الغضب الذي كان يكبته في كل مراحل حياته عند كل فشل في محاولة التعبير عن ذاته أمام والدته، لكن من يلازم قراءة سنة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم يجدها في موقف كهذا رحمة عظيمة تغشى كل ما فيه وتتحكم بانفعالاته لتسير وفقاً لتعاليم المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وهكذا جاء قوله عليه الصلاة والسلام: لا تغضب، كابحاً لجماح جواد حائلاً بينه وبين فعل قد يجعله يندم كثيراً، فوقف وقال لوالدته مبتسماً:

مجرد كسر روتين يا أمي.

غادرت والدة جواد وعلى وجهها تعابير استغراب وكأن فعله هذا من الأمور التي لا يراها المرء في حياته إلا نادراً. وفي الواقع فإن المستنكر والنادر جداً أن يمارس جواد في هذا العمر تمرين الضغط لأول مرة وأن يستغرق كل هذا الجهد ليتمكن من فعله أمام والدته.

وقف جواد يحاول استيعاب ما حصل ويخاطب نفسه:

لقد فعلتها، فعلتها حقاً، من الآن أستطيع أن أمارس ما أرغب من الرياضات في غرفتي دون أن يهبط قلبي كلما اقتربت أمي من غرفتي.

لعل جواد كان محقاً بأنه سيستطيع من اليوم ممارسة ما يرغب من الرياضات في غرفته، أما توقف قلبه عن الهبوط كلما اقتربت منه والدته فيحتاج بعض الوقت، فالانفعالات لا تزول تلقائياً بمجرد إزالة أسبابها.

مع كل محاولة كان يزيد جواد من عدد التمارين ومع كل اقتراب لوالدته من غرفته كان يحاول أن يتجاهل انفعالاته ويراقب تراجع حدتها مع الوقت. وفي اليوم الذي أتم فيه عدد التمارين إلى الثلاثين نظر إلى المرآة ليهنّئ نفسه فإذا بها تسبقه بالتهنئة وتهديه صورة رجل تنبض شراييه وتشع عيناه ثقة وتهدر أنفاسه موسعة صدره ليضيق عليه قميصه مبرزاً عضلاته الفتية، لقد سلبت الصورة لب جواد، عشقها ووقع في أسرها، استغرق في النظر إليها بلا سبيل إلى ارتواء وكأنه مع كل نظرة يصب لنفسه ظماً ويحسب أنها النشوة.

لم تعد الثلاثون مرة تقنع جواداً بأنه بات قوياً ولم تعد تلك الصورة تشبع نهمه فلقد أطلّ ذاك الرجل المذكورة أوصافه في الورقة الممزقة على حياته من جديد، لا ليسحقه هذه المرة وإنما ليرسم له سراب الصورة المثالية، فأصبح كلما وصل إلى سراب تشكل له سراب جديد. وهكذا بدأت حياة جواد بالتصحر، لم يبق منها إلا لهيب التمارين الشاقة والجري خلف سراب الصورة المثالية وخطر الابتلاع في رمال مرآته. وحُبِست البركة عن يوم الجمعة بعد أن احتلت الرياضة الصباحية مكانها وكاد رضى الوالدين ينضب بعد أن حالت ساعات الرياضة وما بعدها من إرهاق بينه وبين برّهما. وأَفَلت المرآة الصادقة عن حياة جواد بعد أن يئس عبد الله من أن يمنحه جواد دقائق من يومه يجتمعون فيها على ذكر الله بعد محاولات كثيرة. حتى أن جواداً نسي أن يدعوه إلى حفل تخرجه.

كان تحرر جواد من مشاعر الخزي أمام والدته نعمة عظيمة وخطوة هامة على طريق العودة إلى الوطن لكن المكافأة أغرته وجعلت قدمه تزلّ في إحدى حفر المنفى وهو يحسب أنه أصبح من الماضي، نسي جواد أن

الإنسان يتغير من خلال علاقاته مع الآخرين فاعتزلهم ولزم مرآته وغربته تبعده عن وطنه أميالاً دون أن يشعر. كانت كلّما أطلّت غربته برأسها عند مقابلة الأقران واجهها برشفة من صورة مرآته، باتت واجهات المحلات ونوافذ السيارات كلها مرايا، وأصبح جواد مدمناً على النظر إليها ليخدر بها ألم الغربة.

صحوة الألم

ملازماً لمراياه ومتقلباً في سراب صحرائه طوى جواد صفحة الحياة الجامعية وبدرجاته العالية وفّقه الله تعالى للحصول على الوظيفة التي كان يحلم بها، كان يعد الأيام التي تفصله عن أول يوم عمل إلى أن جاء هذا اليوم.

في يوم كهذا يفقد المنبه الصباحيّ قيمته فخليط المشاعر وقتها كان أقوى من كل المنبهات، كان يرن كل ساعة برنة مدتها ساعة ومع كل رنة يهجم خوف ويسطع أمل، ترى كيف سيستقبلني زملائي في العمل في أول يوم لي؟ ماذا عليّ أن أرتدي؟ ماذا يجب أن أقول؟ وأسئلة أخرى كثيرة كان يقرؤها تارة على السقف وتارة على الخزانة و تارة على النافذة وهو يتقلب من جنب إلى جنب، وعندما شعر بأنه ما عاد يطيق السرير أمسك بالمنبه فأقفله وقال له: لا حاجة لي بك اليوم، ثم بدأ يجيب على تلك الأسئلة بالأفعال لا بالأقوال، فاختار من الملابس أجمل ما عنده وأكثر من التعطر حتى أن المار بجانبه ليظن أنه اغتسل بالعطر اغتسالاً ووقف أمام المرآة يخاطب زملاءه وكأنهم داخلها، و بين التخيل والواقع كان يفصل طريق ليس بالقصير لكنه قطعه كلمح البصر وهي السرعة نفسها التي كادت أن تدركها دقات قلبه عندما دخل الشركة التي كانت حلماً وأصبحت الآن حقيقة.

كان عليه أن يعبر ممرّاً طويلاً على جانبيه تتوزع المكاتب الأنيقة الحديثة وبين كل بابين طاولة فخمة عليها باقة أزهار سبحان من أبدعها، وفي نهاية الممر غرفة المدير الذي كان يقف عند بابها بانتظاره. مع أنه كان بعيداً إلا أن ملامح الرجولة فيه كانت واضحة جداً، قامته الطويلة، منكباه العريضان وعضلاته التي ملأت بزته الرسمية بطريقة أنيقة جداً، كلها جعلت جواداً لا يرى من الممر إلا المسافة الفاصلة بينهما وكأن عاصفة قوية هبّت فاقتلعت معها المكاتب بما فيها من زملاء والممر بما فيه من

أثاث فاخر ولم يبق صامداً إلا ذلك المدير المشعّ رجولة ووسامة، و كلما اقترب منه أكثر تكشف من جماله قدر أكبر، حتى إذا أصبح أمامه مباشرة عجز لسانه عن السلام، فبادره المدير بالسلام مع ابتسامة على وجهه المشرق و مدّ يده مصافحاً، فلولا أنه استقر في لا وعيه أن يرد على مد اليد بالمصافحة لوقف لساعات دون أن يحرك جواد ساكناً، وعندما استقرت يده المضطربة في يد المدير الواثقة الحنونة احتوتها احتواءً عجيباً لا يمكن معه انسحاب لشدة قوتها ولا يصاحبه أي ألم لشدة رفقها.

لقد كانت تلك اللحظة كفيلة بإعادته طفلاً محتاجاً سهل الانكسار ومشاعره التي كان يظن أنه دفنها جيداً خرجت بقوة سالبة منه القدرة على التحكم بوجهه الذي تلون بذات اللون الذي تصبغه به الحمّى عنوةً، حتى حركات جسده أصبحت رهينة لها. لم يدرك كثيراً مما قاله المدير بعد الترحيب فلقد كان منشغلاً جداً بالمعارك الطاحنة المتخذة من جسده أرضاً ومن مشاعره وقوداً، لكنه كان متأكداً أنه على موعد مع اكتئاب جديد.

عندما وصل إلى مكتبه حاول أن يستعيد السيطرة على أجزائه المبعثرة مؤجلاً الموعد مع الاكتئاب ومتقنّعاً بابتسامته الدفاعية ومحاولاً تجاهل المعارك المشتعلة مع دخول كل زميل لتهنئته، لكن زملاءه لم يتمكنوا من تجاهل ضوضاء رحى تلك المعارك واستطاع جواد أن يقرأ ذلك من الاستغراب الواضح على وجوههم.

لم يكن الاستنزاف حكراً على تلك المعارك، فانشغال جواد في تصنيف زملائه وترسيم حدود علاقاته معهم كان يستنزفه أيضاً، ومع خروج آخر زميل من مكتبه انتهى الترسيم. في دائرة العلاقات الآمنة وضع جواد كل زميل لا يشعر بأي إعجاب به أو انجذاب نحوه بل لا يملك أي رغبة في إقامة علاقة معه عازماً على التقرب منه وتوطيد العلاقة معه، وخارجها أبعد جواد كل زميل يحلم بأن يصبح صديقه ملتزماً إقفال قلبه عند لقائه

وحصر علاقته معه في حدود العمل، كان الحنين يعصف بقلبه إلى ذلك اليوم الذي سيستطيع أن يقيم فيه علاقاته على أساس الحب الأخويّ.

أما المدير فقد ضاق جواد ذرعاً في ترسيم حدود علاقته معه، فهو الذي يرسّم حدود علاقاته مع موظفيه ويسعى لجعلها وثيقة، لاسيّما مع الموظفين الجدد، ويالها من علاقة مضنية بالنسبة لجواد، تلك التي تفرض عليه التقرب ممّن هم خارج دائرة الأمن، إلا أن الوقت لم يكن مناسباً للخوف فعلى جواد أن يسابق الزمن ليثبت أنه جدير بهذه الوظيفة.

مرّت الساعات وجواد منهمك في التعرف على مهامه والتدرب عليها، وعندما بدأ الموظفون يغادرون مكاتبهم بعد أن أطفؤوا أضواءها وكادت الشركة تبدو موحشة بعد أن خيّم السكون مع الظلام قطعت عليه استغراقه في العمل نقرة على باب مكتبه أفزعته، نظر إلى مصدر الصوت فإذا بشاب ينظر إليه متنكراً بابتسامة تخلو من أية ملامح صدق وعلى جسده ثياب لم تُصنَع للستر لشدة ضيقها وإنما لتؤدي مهمة الاستعراض التي سعت تسريحة شعره الغريبة لخدمتها أيضاً، حتى نظراته، حركاته وهو يدخل المكتب، سكناته عندما وقف أمام جواد ومدّ يده مصافحاً وصوته عندما قال "أنا شادي" كانت كلها تتحالف مع مظهره وتصرخ كالطفل الغاضب: عليك أن تنظر إلى جسدي، فعلت كل ما بوسعي لأجعلك تنظر إليه، فانظر إليه الآن...

لم يسمع جواد تلك الصرخات، فقد كان يحاول أن يستعيد هدوءه بعد تلك الفزعة ويخفي توجسه من اختيار زميله لهذا الوقت ليعرّفه بنفسه، ولو سمعها لما أصغى إليها ولو أصغى لما استجاب لطلبها فلقد اعتاد أن يتحكم بعينيه ويبعد بصره عن كل ما يزيد من اضطرابه أو يكشف لمن معه عن هذا الاضطراب، وقف ليصافحه ونظر إلى عينيه مباشرة حيث يخترق مزيج من الحزن والغضب والخزي قناع الابتسامة، الحزن الذي منشؤه فراغ في قلبه جعله يعيش على نظرات الآخرين والغضب من عدم

استجابة جواد لأوامره والخزي بسبب شعوره بالإهانة لعدم تقدير جواد لكل ما فعله من أجل أن يحظى بنظرة منه.

وعندما صافحه جواد عصر شادي يده عصراً مفرّغاً بذلك كل ما فيه من غضب ونظر إليه متحدياً وكأنه يرسل بهذه النظرة رسائل تهديد. لم تُعِد تلك المصافحة جواداً طفلاً محتاجاً كما فعلت مصافحته مع مديره وإنما أعادته طفلاً خائفاً وأجبرته على ترسيم حد جديد يفصل بين العلاقات غير الآمنة والعلاقات الخطرة ليجد لشادي مكاناً في المنطقة الجديدة.

جلس شادي أمام جواد بطريقة هي الأخرى تحاول إجباره على النظر إلى جسده وأصبح يكلّمه عن العمل في الشركة وكأنه المدير، أثناء حديثه كان يكثر من التمطمط رافعاً يديه ومجبراً قميصه القصير على الارتفاع ولسان حاله يقول "لن أخرج قبل أن آخذ من جواد ما أريد"، وفي لحظة ضعف فقد جواد السيطرة على عينيه فخطف نظرة من الجزء المكشوف من جسده، لم يستطع أن يخفي تلك النظرة عن عيني شادي اللتين لم تتوقفا عن التحديق به بانتظار هذه اللحظة.

توقف شادي عن الكلام ووقف مجهزاً نفسه للخروج بعد أن بسطت نشوة النصر أسارير وجهه فصافح جواداً ليعصر يده من جديد وقال له مع نظرة تحد وابتسامة غطرسة: لقد تأخر الوقت، أراك غداً يا جواد.

جلس جواد في مكتبه مكلوماً بعد أن اقتلع شادي تقديره لذاته وأغرقه في الخزي ثم تركه فريسة للشيطان الذي لا يمكن أن يفوت فرصة كهذه فهجم على جواد يوسوس له:

لماذا لا تتوقف عن ادعائك للفضيلة والسعي للتغيير؟ ها هو قلبك معلّق بمديرك وعيناك تحاولان سرقة ما لا يحلّ لهما. مصيرك أن تبقى كما أنت، فدعك من هذا النفاق.

شعر جواد بالذعر فمدّ سجادة الصلاة في مكتبه وشرع في الصلاة قبل أن يتمكن الشيطان منه، وعندما التصقت جبهته بالأرض حاول أن يستعيد نفسه بذرف الدمع والمناجاة وأن يستجمع قواه ليتمكن من ارتداء ابتسامته قبل العودة إلى البيت ويستعد للغد علّه يكون أفضل.

ما أغرب اليوم عن الأمس وما أحوج جواد اليوم للمنبهات وما أعلى أصواتها عندما سمع فيها قرع طبول المعركة، اقتلع نفسه من سريره وتدجّج بما يعينه على الخوض فيها ثم انطلق إلى مكتبه، الشركة التي كانت حلماً باتت كابوساً واللهفة إلى لقيا الزملاء باتت ضيقاً والعودة طفلاً كادت تبدو وكأنها المصير، كان يرجو أن تكون عودة رحيمة على يد مديره لا سقيمة على يد شادي.

ومع وصوله إلى المكتب وصلته رسالة من مديره يطلب بها منه أن يجهز نفسه ليذهب معه لزيارة المعامل القريبة ويتعرف على سير العمل فيها، وما أن رفع رأسه من قراءة الرسالة حتى وجد المدير واقف عند باب مكتبه يقول له:

السلام عليكم يا جواد، هل أنت مستعد؟ عندنا رحلة طويلة اليوم.

جواد: وعليكم السلام، أهلاً أستاذ، نعم جاهز إن شاء الله.

خرج جواد مع مديره ومشى معه في ذلك الممر الطويل، لم تكن العاصفة هذه المرة ما جعله لا يرى إلا مديره وإنما وقوع كل ما فيه في أسره، لم تكن عيناه الوحيدتين العاجزتين عن إبصار أي شيء إلا سحره، فأنفه كان منشغلاً عن التنفس باستنشاق عطره، وأذناه صُمَّتا عن سماع أي شيء إلا نغمة الرجولة في صوته، وفي رأسه كانت تتصارع الأسئلة:

أبشر هو؟ أم الرجولة تمثّلت في هيئة البشر؟

هل رُكّب عطره من عقاقير الرجولة؟ ليليق به؟

أم من ريحه؟ ليعطر به الرجولة؟

من المسؤول عن تحريك يديه لتتناغم مع تعابير وجهه عند الحديث؟

وعن خطواته الواثقة عند المشي؟

هل ضبطها بعقله الواعي؟

أم الرجولة استقرت في مفاصله وعضلاته بعد أن فاضت من لاوعيه؟

وماذا عن قلبي الذي تدوي فيه رياح الخواء؟

أيحق له أن يفرح بهذا الموعد مع الرجولة؟

أم عليه أن يخسأ في الجحيم الذي بعده؟

أأهنأ بالطفولة التي سيرميني فيها بيديه؟

أم أختنق غرقاً في خزيها؟

أسئلة بلا إجابات زادت أحمالاً على أحمال جواد المرهونة جوارحه عند سحر مديره. عندما جلس بجانبه وهو يقود سيارته رأى فيه فارساً يمتطي خيلاً أصيلاً ومع كل تلفُّت منه لمراقبة السيارات متجهاً ببصره نحوه كان جواد يشعر أن قلبه يكاد يقفز علّه يستقر بين ذراعيه. في المعمل كان جواد يراقبه وهو يمازح العمال ويطبطب على أكتافهم وكأن الجميع كان حينها على موعد مع الطفولة.

بعد أن انتهت الجولة اتجه المدير إلى جواد وقال له:

نحن أيضاً بحاجة إلى وقود لنتابع رحلتنا، أليس كذلك؟ يوجد في هذه المنطقة مطعم جيد، ما رأيك بوجبة عنده؟

وافق جواد على استحياء وذهب مع مديره إلى المطعم.

كان الجوع والإنهاك يضفيان على المدير بريقاً خاصّاً وكأن كل ثوب بالٍ يُلقَى على الرجولة يتحول إلى مخمل أو كشمير؟ تناول الطبق بيد ثابتة، قال لجواد "تفضل" ثم منح الشوكة والسكين شرف الاقتراب، هكذا رأى جواد المشهد عندما كان ممتنّاً للمدير على منحه ذات الشرف.

ومع كل لقمة كان جواد يقترب أكثر والحواجز بينهما تتضاءل، استطاع أن يستجمع قواه ويحدّثه عن أيام الجامعة وصعوبات الدراسة، حدثه عن الآلام والأحلام، عن التصورات والتوقعات، استطاع أن يعرف عن نفسه بتلك الأحاديث وأن يتعرف على مديره بالردود عليها وقد منحه شرف الاستماع والاهتمام.

في ذلك الموعد مع الرجولة عاش جواد كل جزء من ثانية بكل أبعاده، فرح به حتى الابتهاج متناسياً الموعد المرتقب مع الخزي، وعندما نظر المدير إلى ساعته مستعداً للخروج من المطعم تكشفت الحقيقة المظلمة خلف حجب النور المُتوهَّم وبدأ منسوب الخزي يرتفع ودعا جواد أن تنتهي الرحلة قبل الغرق.

في بقية الجولات كان جواد يترقب لحظة الانفصال بخوف، فبغياب المدير ستزول تلك الرابطة الطفيلية مع رجولته وسيعود جواد فارغ القلب عاجزاً عن إقامة رابطة أصيلة مع رجولته هو، وعندما وصل إلى البيت وبعد أن استطاع أن ينزع ابتسامة الدخول رمى نفسه على سريره مطلِقاً دمعاته المحبوسة التي وصلت حد الانفجار، لقد بكى أوراق عمره المتساقطة بفعل رياح علاقاته، المحترقة بنيران الشوق والاحتياج، بكى فرحته الطفولية التي عاشها مع مديره المغمورة بالخزي، وأدرك أن الفرحة المبنية على الاحتياج لا تجر خلفها إلا احتياجات جديدة، لا يمكن أن يلبيها لا مديره ولا أحد غيره وشعر بالعار لركوب الشيطان مع غرائزه موجة هذه الاحتياجات لتتراءى أمامه تخيلات ما أرادها يوماً ولكن فراغ القلب ساقه إليها بالسياط.

تأوه جواد، تردد قبل الاستسلام للنوم بعد هذا الإنهاك، صحيح أنه يكتب بنومه نهاية معركة ولكنه يكتب به أيضاً بداية معارك جديدة عند بداية يوم جديد. باتت معارك المنفى فتاكة وكاد الغرق المتكرر في الخزي يسلب جواداً القدرة على تنفس أمل بالتغيير، لكن ثقته برب العالمين كانت أقوى من كل يأس، فاستعان به وتوكل عليه راجياً منه فرجاً قريباً.

مع بداية اليوم الجديد كان جواد يعتقد أنه تجهز جيداً للمعركة الجديدة، لكن خصمه كان قد باغته بخطوة استباقية فعندما فتح باب مكتبه فوجئ بشادي يجلس على كرسيه ثم يتجه نحوه بلهفة مصطنعة وينهال عليه بالأسئلة:

جواد، هل أنت بخير؟ لم أرك البارحة فخفت أن يكون قد أصابك مكروه ثم علمت من المدير أنكما كنتما في جولة على المعامل، من الضروري أن أحصل على رقم هاتفك الخاص لأطمئن عليك في مواقف كهذه.

وقف جواد مذهولاً من الموقف محمر الوجه عاجزاً عن التفكير، وكان شادي يراقب اضطراباته ويحاول قراءة مشكلة حياته من الخوف المشعّ من عينيه، كاد شادي يجزم أنه قرأها وبضغطة منه على يد جواد وهو يصافحه أعلمه بهذه القراءة، ولعل الخير الوحيد الكامن بالطعنة التي شعرها جواد حينها في صدره أنها أنسته أن يعطي شادي رقم هاتفه الخاص. عندما استطاع جواد أن يفلت يده قال له شادي:

لقد طلب مني المدير أن أوضح لك بعض التفاصيل في سير العمل، لن يستغرق الأمر كثيراً من الوقت، لذلك سآتي إليك قبل أن أغادر الشركة.

ثم غادر المكتب بعد أن امتص طاقات جواد كلها من بداية اليوم تاركاً إياه مذهولاً متوجساً من زيارته المرتقبة.

حاول جواد أن يركز في العمل رغم جراحه النازفة ورغم الذعر الذي ملأ قلبه، كانت الساعة تبدو وكأنها قد توقفت عقاربها عن الحركة،

وعندما كادت المكاتب تخلو تهيأ لاستقبال الزائر المريب، لكن تهيؤه لم يحل بينه وبين الفزعة عند قرعه للباب.

دخل شادي وجلس بجانب جواد ثم بدأ يشرح له تلك التفاصيل، لم تغادر الريبة جواداً للحظة على الرغم من سيطرة جو العمل على الموقف، فقد كانت تحركات شادي تبعث رسائل غير مطمئنة وعندما أدرك جواد أنه يحاول الاقتراب منه وقف مسرعاً متظاهراً بالبحث عن ورقة، ثم قال لشادي:

أشعر أني ما عدت قادراً على التركيز اليوم، ما رأيك أن نكمل غداً؟

وصلت الرسالة إلى شادي، تلقاها على أنها إهانة فرد عليها بابتسامة قوامها اللؤم ثم غادر المكتب عازماً على تكرار ذلك الموقف.

بقي جواد في مكتبه وحيداً وبخلوّ الشركة كانت العبرات قادرةً على السقوط بلا حسابات مسبقة ولكن إلى أين المصير بعد انتهاء العمل؟ إلى المنزل طبعاً! هذا يعني محاولة دفن جديدة! لكني اليوم منهك جداً ومشاعري أقوى من أي وقت مضى. أثناء هذا الحوار مع نفسه كانت قدماه تسيران به دون أن يشعر إلى الرجل الوحيد في هذا العالم الذي يستطيع أن يقابله بدون أقنعة.

عبد الله: لا أستطيع أن أصدّق وأخيراً زارني الجود من جديد، أهلاً وسهلاً.

دخل جواد دون أن ينطق بكلمة، رمى حقيبته ثم جلس ينظر إلى الأرض بحزن. أدرك عبد الله أن جواداً بحاجة إلى أن يختلي بنفسه وأنه لم يجد ملجأً إلا عنده فخرج من الغرفة وأقفل عليه الباب.

لم تصبر دموع جواد حتى إتمام إغلاق الباب فاستطاع عبد الله أن يرى قطرة بلّلت وسادة كان قد أسند رأسه عليها الذي كان أثقل عليه أكثر من

أي وقت مضى، كان ثقله يدفعه إلى أن يهوي به أرضاً ويسجد على سجادة الصلاة التي كان عبد الله قد أنهى للتوّ صلاته عليها حتى أن أثر وضوئه كان ما زال واضحاً عليها.

أول صوت رافق أنين جواد كان كلمة الحمد لله، قالها مستشعراً رحمة الله عليه إذ أغلق في وجهه وهو في أضعف حالاته أبواباً تتخطف ضعافاً كثراً مثله وفتح له باب رحمته، قطع عليه الرجاء من الناس كافة وألجأه إلى وجهه الكريم ومنّ عليه بالانكسار بين يديه ورقق قلبه وأسدل دمعه، شكا إليه ضعفه وباح له بخجله من هذا القلب المتعلق بغيره فالتمست روحه العفو عند من وسعت رحمته كل شيء.

أدرك جواد أن أفضل شكر لله تعالى على نعمه يكون بمواجهة مشاعره التي تعود على دفنها، المشاعر التي ظلت ترتع في منفاه إلى أن أصبحت تخط ردود أفعاله وتجعل منه فريسة أمام كل مفترس. رفع رأسه ولم يتوقف عن البكاء، وعندما هدأ فتح باب الغرفة ليُعلِم عبد الله أن باستطاعته الدخول ويصارحه.

جواد: أخبرني يا عبد الله، متى كانت آخر مرة احتضنها فيها والدك؟

استطاع عبد الله أن يقرأ ما خلف سؤال جواد من خلال الحزن في عينيه فانتقى ألفاظه بعناية لئلّا يزيده ألماً:

يبدو أنك تريد أن تختبر ذاكرتي يا جواد، أعطني بعض الوقت فذاكرتي تعاني بعض المشاكل هذه الأيام.

لم يبتسم جواد لنكتة عبد الله ولم يعطه أي فرصة لاسترجاع ذاكرته وإنما قاطعه قائلاً:

كنت أعتقد أني فاقد للذاكرة بشكل تامّ يا عبد الله ولكن منذ أن أخبرتني أمي أن والدي لم يحضنها ولا مرة علمت أن حضن أبي هو المفقود.

قالها جواد وهو يضم ذراعيه حول صدره ويغلق نفسه بخفض رأسه حانياً ظهره وناظراً إلى الأرض.

لزم عبد الله الصمت تاركاً لكلمات جواد المختنقة مجالاً للخروج.

جواد: كلما رأيت أباً مع طفله يمسك بيده أو يحضنه تمنيت أن أكون ذلك الطفل. عندي حنين شديد الإلحاح، جذوره ضاربة في أعماق قلبي، يتملكني كلما رأيت ذلك المشهد، ذات الحنين الذي يهجم عليّ كلما رأيت طفلاً يسرع ليتسلق ظهر أبيه وهو يصلي ثم يلصق صدره بظهره ويلف يده حول عنقه ويلقي برأسه على كتفه. هل لاحظت يا عبد الله كيف يسكن الأطفال عندما يتسلقون ظهور آبائهم؟ كيف تبرق أعينهم وكأنهم في عالم آخر؟

عبد الله: حقاً تشعر بأنهم في عالم آخر، وكأنهم يستقبلون شيئاً ما من هذا الاتصال ويحاولون تخزينه في قلوبهم.

جواد: أصبت يا صديقي، الاتصال هو ذاك الشيء الذي أحن إليه دائماً. يبدو أن طفولتي كانت خالية تماماً من لحظات كهذه.

تغيرت ملامح جواد، كان وجهه يفصح عن ألم شديد، وضع يده على صدره مصدر الألم، كان يشعر بسكين تطعنه في قلبه، ثم قال متأوّهاً:

أشعر بفراغ كبير في قلبي. إنه مؤلم جداً، يكاد يسحب أضلاعي لتطبق على نفسي وتخنقني.

شعر عبد الله بالارتباك لرؤية جواد بهذه الحالة، أراد أن يخفف عنه ولم يدر كيف، كان يشعر أن في هذا الألم الذي يعانيه جواد خير فلزم الصمت مجدداً لكنه تكلم بعينيه هذه المرة:

أنا أصغي إليك يا جواد، أشعر بك، ارم كل أحمالك عندي، أطلق كل آهاتك أمامي، ثق بي يا جواد، سنعبر هذا الطريق الموحش معاً، يدي بيدك، قلبي معك ولن أتركك إن شاء الله.

وصلت الرسالة إلى جواد، فاللغة التي تجيدها عينا عبد الله شديدة الوضوح، استقرت الرسالة في قلب جواد، ثبتته وقوته على مواجهة المزيد من الألم:

كلما تخيلت أني ذلك الطفل غرقت في الخزي، تناثرت كحبات الرمال حتى لم يبق مني شيء. أريد أن أهرب، لا أستطيع تحمل هذا الخزي لا أستطيع.

بدت علامات الذعر على جواد، احمر وجهه، تسارعت أنفاسه وبدأ يهيئ نفسه للهرب متخذاً طريق عقاب النفس ثم قال:

ربما كنت ذلك الطفل الذي لم يحاول تسلق ظهر أبيه، لعل أبي حاول أن يتقرب مني لكني ابتعدت عنه، لعله أكثر حزناً مني الآن ولعلي سبب أحزانه.

شعر عبد الله أن عليه أن يُخرج جواد من جلد ذاته ليتمكن من متابعة المسير فقال:

لكل طفل طباعه التي تحدد علاقته بأبيه ولكل أب أسلوب يتبعه مع طفله، أعتقد أنه جزء من اختبارنا في الحياة، الأب يُختبَر بابنه والابن يُختبَر بأبيه، ويستمر الاختبار حتى بعد أن يصبح الطفل رجلاً. ألا تعتقد يا جواد أن تتبّع هذا الحنين قد يساعدك في التعامل مع هذا الاختبار؟

أومأ جواد برأسه موافقاً، لم يستطع الكلام فقد كانت دمعاته تخنقه ولو تكلم لانفجر بكاءً. ثم بدأت عبراته تتسابق إلى لحيته بصمت.

قدم عبد الله له منديلاً ثم سأله: من أين يأتي هذا الحنين يا جواد؟

جواد: أعتقد أن الله عز وجل قد أودعه في كل طفل لحكمة أرادها سبحانه.

عبد الله: وماذا يمكن أن تكون هذه الحكمة؟

فكر جواد مليّاً ثم أجاب: عادةً نحنّ إلى الأشياء التي تشبع احتياجاتنا، لا بد أن هناك حاجةً يشبعها الطفل من خلال اتصاله الجسدي مع أبيه وهذا ما يجعله يبدو وكأنه في عالم آخر حينها.

عبد الله: وعندما يتم إشباعها تتحقق غاية أسمى ويُطفأ الحنين، وبالتالي فإشباع الحاجات وسيلة وليس غاية.

جواد: وإذا لم يتم إشباعها؟

عبد الله: لله عز وجل في هذا الكون سنن تشهد على عظمته وإتقان خلقه، لكنها لا تحكمه جل وعلى وإنما تسير بأمره، فالله قادر على تحقيق هذه الغاية الأسمى بتدبيره حتى لو لم تُشبَع الحاجة. أعتقد أنه من تكريم الله عز وجل لعبده أن يتولى تدبير أمره بنفسه على غير ما تجري به السنن.

جواد: وماذا عن الحنين؟

عبد الله: يطفئه حب الله تعالى ويملأ فراغ القلب.

لزم كلٌّ من جواد وعبد الله الصمت، كان جواد يحاول أن يسقط ما قاله عبد الله على مشكلة حياته مفكراً:

عليّ أن أتقبل الحقيقة، لا أبي ولا أي رجل آخر قادر على إشباع هذا الحنين، لن أحصد من طلب إشباعه إلا المزيد من الخزي. لكني لست وحيداً فالله معي وحبه سيملأ الفراغ في قلبي. أما الغاية الأسمى فهي عودتي إلى وطني، تحقيق ارتباطي بذاتي وبالرجولة وبمن حولي، يجب أن أركز على الوصول إلى هذه الغاية بدل الوقوف على الأطلال.

أراد جواد أن يعلم كيف يمكن تحقيق هذا الارتباط فسأل عبد الله:

ما هي الحاجات التي يشبعها الطفل من تواصله الجسدي مع أبيه؟

عبد الله: إذا ما نظرنا إلى مراحل الاتصال الجسدي عند الطفل وجدنا أنها تبدأ مع الأم حيث يكتسب منها الشعور بالأمان وبأنه جدير بالحب، وعندما يكبر ينتقل هذا الاتصال إلى الأب. أعتقد أن الطفل بالتصاقه بأبيه يستشعر قوته فيحبها لما تكسبه من دفء ويتمنى أن يصبح مثله، كما أنه يشعر أن أباه متاح له فيكتسب من ذلك الثقة به وبما أنه الرجل النموذج بالنسبة للطفل فيكتسب منه الثقة بالرجولة وبالتالي بالرجال الآخرين. هذه الثقة تجعله قادراً على الدخول لعالم الرجال وتقديره لذاته كواحد منهم.

كشفت كلمات عبد الله حجباً عن مشكلة حياة جواد، لقد وضع يده على الجرح. جواد كان فاقداً للاتصال الجسدي مع أبيه كفقده لحنانه، لم يكن حاضراً في حياته إلا مربياً صارماً، فشعر أن الرجولة ليست بالجميلة، وبسبب غياب أبيه خسر ثقته به وبكل الرجال فخاف من اقتحام هذا العالم الموحش وبقي خارجه ينظر إلى نجاحات أقرانه بدخوله حاسداً إياهم ومثقلاً بتحقير ذاته لعجزه عن هذا الدخول.

بلغ جواد ذروة الإنهاك بعد هذا اليوم الطويل، شكر عبد الله على مساعدته ثم خرج من عنده متوكلاً على الله عازماً على كشف المزيد من الحجب مستعيناً به سبحانه وتعالى.

صدمة عاطفية

دخل جواد في عجلة العمل متخذاً منها دون أن يشعر مسكّناً لآلامه ومهرباً من مضايقات شادي ومحاولاته المتكررة لتلويث قلبه وبات غافلاً عن اكتئابه الذي أخذ ينهش عضلاته التي ظل شهوراً يرعاها ليسكن جسده النحيل من جديد ضارباً بسور شاهق بينه وبين صورة الرجل المثالية التي كان يلتقطها لمديره بعينيه الفضوليتين كل صباح.

وعندما رآه ذات يوم في الحديقة صدفة راودته الدهشة فقد كان يفكر فيه للتو ويشعر بقربه، ثم فجأة تراءى أمام عينيه. كاد جواد يصدق حينها أن رابطة خفية ما تجعلنا نحس باقتراب من نحب منا قبل أن نراهم، لكن الحقيقة أن جواد بات دائم التفكير في مديره لدرجة أنه ما عاد يدرك ذلك إلا عندما يراه.

كان الرجل القوي الوسيم يلعب مع طفل صغير وتتداخل ضحكاته مع ضحكاته، جلس جواد يراقب من بعيد يبتسم ويسأل نفسه: من تراه يكون هذا الطفل؟ أخوه الصغير أم ابن أخيه؟ خطرت على بال جواد كل صلات القرابة إلا صلة واحدة كان قد نسيها أو ربما استبعدها بلا وعي لما قد تحمل معها من ألم، ولو أن أحداً غير جواد رأى هذا المشهد لجزم بأن الصلة التي تربط الطفل بهذا الرجل هي تلك التي استبعدها جواد.

استغرق جواد في مراقبة مديره غير آبه باقترابه حد الغرق، لكن سؤاله عن صلة القرابة كان يشوش عليه استغراقه، فقد كان ملحاً جداً وكان جواد يدفعه في ذات اللحظة التي يستحضره فيها وياله من إرهاق، كان يستجمع قواه ليتذكر صلة القرابة التي يدل كل شيء عليها وما أن يقترب من تذكرها حتى ينتابه خوف يفقده الذاكرة فيعاود الكرة من جديد.

الذاكرة المفقودة المجهَد صاحبها في البحث عنها بلا جدوى قد تعود فجأة إذا ما حُفِّزت بطريقة ما، وكذلك شأن الرعب يبقى صاحبه خائفاً يترقب

حتى يُحفَّز فجأة بطريقة ما. وبالفعل خرجت من فم الطفل كلمة أبي كالصاعقة فنزلت على جواد معيدة له ذاكرته مالئة قلبه هلعاً.

هرب جواد... خرج من الحديقة مرتعداً من هول الحقيقة التي كان يحاول إخفاءها طويلاً. مديره في العمل عنده ولد، إذاً هو متزوج وعنده عائلة وليس كما رسمه جواد في مخيلته، رجل وحيد عنده ذات مشكلة حياة جواد، فأي مكانة سيحتل في قلبه الآن؟ كان جواد يريد أن يحتل قلبه كله، أن يملكه كله، أن يكون الشخص الوحيد في حياته.

لم يكن العبور إلى الماضي في تلك اللحظة قراراً من جواد وإنما وجد نفسه مرمياً بفعل الصدمة في أحضان أواخر الطفولة لتتراءى أمامه كل الأحداث وتحتل حاضره، حتى ليكاد يستطيع أن يصف الأشخاص وكأنهم أمامه، إلا رجل واحد. والد جواد كان غائباً عن كل المشاهد مع أن كل التفاصيل كانت تؤكد وجوده.

أما والدته فحاضرة دائماً، تكاد تملأ المشهد بكامله حتى لا يجد جواد لنفسه أية فرصة للعب أي دور، على الرغم من قدرته على لعب الأدوار كلها، لكن رغبته في الاستقلال عن والدته كانت آخذة بالضمور بعد كثير من المحاولات الفاشلة، لذلك اتخذ قراراً - قسراً لا طوعاً - بأن يسلّم دفة مركبه لوالدته متنازلاً بذلك عن ذاته.

كانت عيناه البريئتان تقولان لها في كل صباح: افعلي بي ما شئت في الدقائق القليلة المتبقية، لن ترافقيني إلى المدرسة، هناك سأكون مع صديقي أحمد.

كان جواد يرى خروجه من البيت إعلاناً عن استلامه لدفة مركبه، ولعل الناظر بعينيه إلى ظاهر جواد سيعتقد ذات الاعتقاد، فالدفة بين يديه وهو الذي يحركها بمفرده، لكن المتبصر في أعماقه سيبحث عن المحركات

الخفية عنده، أفكاره التي عمرها من عمره ومشاعره المحفورة في قلبه، كلها ستجعل هذا المتبصر يقول له:

عذراً جواد، أنت لم تستلم القيادة بعد، الدفة ما زالت بيدي والدتك وإن لم تر ذلك. إن كنت غير قادر على تصديقي فأخبرني من الذي يتحكم بك عندما تنظر إلى الصبية في الملعب نظرة اشمئزاز بسبب العرق المتصبب من رؤوسهم؟ أليست هي ذات النظرة التي حفظتها عن والدتك؟ لو كانت الدفة بين يديك يا جواد لاعترفت بإعجابك بهم وبرغبتك في اللعب معهم وبحلمك بأن تلمع جبهتك تحت أشعة الشمس مثل جباههم. وماذا عن شهادات التفوق التي تحاول الإشارة إليها كلما طلب منك أحدهم اللعب معهم؟ أليست هي ذات المحاولة التي ترد بها والدتك على كل شخص يشير إلى سيطرتها عليك؟ ستمسك بالدفة يا جواد عندما تتوقف عن تغطية ضعفك بتفوقك الدراسي وعندما تعترف بخوفك من مدافعة رفاقك للحصول على الكرة وبرغبتك في التغلب على هذا الخوف.

كلام قاس جداً على قلب جواد الضعيف وحقائق أصعب من أن يستوعبها طفل لا يرى إلا ظواهر الأمور، أما بواطنها وما تحمله معها من ألم فلا يملك أمامها إلا الهروب، الهروب من عالم الحقيقة وما فيه من تحديات إلى عالم الخيال المنقّى منها، وأحمد هو الصديق الذي يضمن جواد معه النّأي بنفسه عن عالم التحديات، رمته سمنته خارج حدود الملعب ليستقبله جواد بذراعين مفتوحتين وبقلب يسيطر عليه فراغ كبير تركه والده في ماضيه.

كان أحمد صاحب نكتة ويدخل القلوب بلا استئذان وكان جواد يجد معه الأُنس الذي كان يفتقده في البيت. كان الجميع يلاحظ العلاقة القوية التي تربط جواد بأحمد وكان جواد يعتقد أنه يحب أحمد أكثر من أي شخص آخر. في عالم الخيال يصبح الأشخاص دمى يحاول جواد استخدامها ليشكلها على الطريقة التي تضمن له البقاء بعيداً عن عالم التحديات وما

فيه من ألم، لذلك وضع جواد لنفسه في قلب أحمد المرتبة الأولى وسار بعلاقته معه على هذا الأساس.

ولأن الخيال يبقى خيالاً مهما بلغ الاستغراق فيه ولا تُشبع الحاجات فيه كما في عالم الحقيقة أراد جواد أن يحصل على تأكيد من أحمد أنه يحبه أكثر من أي شخص آخر.

وفي يوم مشمس كان أحمد يستظل بشجرة في حديقة المدرسة ويعيش علاقة عشق مع السندويشة التي كاد يتناول أصابعه مع كل لقمة منها وجواد يتجه نحوه ويراقبه مبتسماً، عندما وصل إليه جلس بجانبه وعيناه تراقب الصبية الأكبر سناً وهم يلعبون في الملعب المقابل ثم قال له بصوت دافئ:

أخبرني يا أحمد من أكثر شخص تحبه في حياتك؟

لم يدرك جواد أنه بسؤاله هذا خرج من عالم الخيال واقتحم الحقيقة اقتحاماً، كان ينتظر رد أحمد "الدمية": أنت يا جواد.

لكن أحمد قال له وفمه ممتلئ بلقمة تناولها للتو: أمي وأبي.

حاول جواد أن يستقبل الجواب متجنباً للألم فقال في نفسه: هذه إجابة محفوظة يكررها الجميع، ثم قال لأحمد:

ثم من؟

أحمد: أخي الصغير.

تعامل جواد مع الجواب الثاني بذات الطريقة وكان متأكداً أن الجواب الثالث سيكون: أنت يا جواد، وعندما سأله: ثم من؟ قال أحمد:

ابن عمي سمير، أجمل الأوقات أقضيها معه.

وماذا عن أوقاتنا؟ ماذا عن صداقتنا؟ ماذا عن حبي لك؟ أليس لها مكان في قلبك؟ وأسئلة أخرى كثيرة هجمت على لسان جواد فألجمته وغضب عارم اجتاحه، صبغ وجهه بالأحمر ثم تسلل إلى ذراعيه، لكنه حرف مساره ووجهه إلى نفسه عقاباً لها على ذنب لم تقترفه. ما بدأ في الخيال ينتهي في الخيبة والهروب من مواجهة ألم التحديات يوقع في الوهم الأكثر إيلاماً، وهكذا وقع جواد في وهم عدم استحقاق محبة أحمد قائلاً لنفسه:

من أنا حتى يحبني أحمد؟ أنا شخص مملّ ولن أستطيع أن أكون لأحمد مثل سمير.

لقد نسي جواد كل المواقف الجميلة التي عاشها مع أحمد وحبس نفسه في الوهم.

حتى في علاقته مع أحمد كان جواد فاقداً لدفة المركب، كان سعيه لملئ الفراغ في قلبه هو المتحكم في كل شيء، فكان يحاول أن يشكل أحمد كما يريد ليثبت لنفسه أنه جدير بالحب، وعندما فشل عاقب نفسه.

كانت الصدمة التي تعرض لها جواد باقتحامه عالم التحديات قد تخطت درجة التحمل ما جعله يدخل في حالة من التخدير العاطفي ليحمي نفسه من الألم، في تلك اللحظة وقع بصره على أحد الشباب الذين كانوا في الملعب المقابل وهو يرفع قميصه ليمسح به عرق جبهته كاشفاً بذلك عن صدره، كان وسيماً ضخم البنية وكل ما فيه مشبع بالذكورة، بقي جواد عاجزاً عن رؤية أي شيء غيره حتى حفظ صورته ولم يستفق إلا على صوت أحمد وهو يقول:

علينا أن نذهب إلى الصف يا جواد، سيبدأ الدرس بعد قليل.

دخل جواد إلى الصف وكأنه شعلة قد انطفأت للتو وعندما عاد إلى البيت كان منهكاً من السؤال الذي أصم أذنيه "هل أنت بخير يا جواد؟" فأسرع

إلى سريره هارباً من عالم لم يعتد على مواجهته، خالعاً كل ما يتعلق به، وبعد أن دخل في نوم عميق أدرك أن جزءاً من هذا العالم مازال عالقاً في ذهنه، لقد قضّت صورة الشاب في الملعب مضجع جواد وأيقظته على حال لم يعرفه من قبل ولم يخبره عنه أحد. أسرع إلى الحمام ليبدل ملابسه خشية أن يرى عليها أحد من أسرته الأثر الذي تركه ما اعتقد أنه داء قد ألمّ به.

في ذلك اليوم كشّرت غربة جواد عن أنيابها مفترسة اللحظة التي ينتظرها كل طفل على أعتاب الرجولة ورامية بأشلائها في مستنقع العار.

لم يعد المنفى الأول يتسع لجواد بعد أن أصبح رجلاً، كان عليه أن ينتقل إلى منفىً جديد مثقلاً بأحمال جديدة. هنا يصبح النظر للمرآة أكثر صعوبة، ففي كل يوم يرى فيها جواد تغيرات جديدة تغرقه في الخزي، هي ذاتها التغيرات التي يتباهى بها رفاقه ويحسدهم عليها، لكن الخزي كان الجدار الضخم الذي يحول بينه وبين رجولته وفراغ القلب يجعله يبحث عنها خارجه.

استيقظ جواد من ذكرياته المؤلمة فوجد نفسه قد وصل إلى متجر الأزهار القريب من بيته وفي ذهنه أسئلة محيّرة: لماذا لم أكتف باللحظات الجميلة مع أحمد؟ لماذا أردت أن أكون الشخص الأول في حياته؟ لماذا أكرر ذات البؤس مع مديري؟ ألا يكفيني أنه يحترمني ويقدر إنجازي في العمل؟ وأثناء تلك التساؤلات وقعت عين جواد على باقة ورد مختلفة الألوان فإذا بها تعيده إلى ماضيه الخارج منه للتو.

أعادته إلى يوم ربيعي جميل حيث كان يحاول بعينيه المشعتين فضولاً واندهاشاً أن يلتقط أكبر عدد ممكن من صور الربيع الذي تزينت به كل الأرجاء من حوله وهو عائد مع والده من المدرسة، وبعقله الوقّاد كان يجمعها إلى صوره التي اعتاد أن يشكل منها هذا العالم كما يحلم، وبقلبه الخفّاق أراد أن يحتفظ بدفئها من أجل الخريف القادم.

في هذه الأثناء كانت جدته تحاول أن تنشئ علاقتها الخاصة مع الربيع من خلال الذكريات والاعتناء بحديقة بيتها الصغيرة، لقد أرادت أن تدّخر ما بقي لها من قوة بصر لرؤية حفيدها الغالي فهو الربيع بالنسبة لها.

وبإحساسه المرهف علم أن جدته آثرت رؤيته على رؤية الأزهار فأصرّ أن يشاركها سعادته، فما أن رأى بستاناً مطرزاً بالأزهار حتى ركض إليه وكاد أن يتلاشى فيه وهو يبحث عن زهرات فريدة ليشكل منها باقة ملونة ويهديها إلى جدته التي كانت بالنسبة له الحضن الوحيد الذي يجيد ثقافة الحب غير المشروط.

وعندما شعر أن يده الصغيرة ما عادت تستطيع أن تضم عدداً أكبر من الأزهار رفع الباقة باتجاه والده بفخر ونظر إليه بثقة وبعينين نصف مفتوحتين وبابتسامة بريئة مع حاجبين مقطبين اتقاءً لأشعة الشمس التي كانت تطل من فوق كتف أبيه وقال بصوت قوي استلقى على نسمات الربيع اللطيفة وزاد المنظر خضرة ولم يخفت إلا عند أبعد سور للبستان حيث علا ضجيج السيارات:

انظر يا أبي إلى هذه الباقة ما أجملها، سأفاجئ بها جدتي.

كان يبحث في تلك اللحظة عن آخر قطعة بزل يكمل بها لوحته المليئة بالألوان البهيجة، كانت تلك القطعة ابتسامة صافية من والده مع يد حنونة تطبطب على كتفه وكلمات بسيطة بصوت رجل يملأ فراغاً في قلبه ويجعله يشعر بالقبول والاهتمام، كلمات بسيطة مثل: أنا فخور بك يا بنيّ، لقد أحسنت صنعاً. وبدون تلك القطعة كانت ستبدو اللوحة ناقصة رغم جمالها وكأنها لوحة بلا انتماء، بلا ارتباط حقيقي، لوحة جميلة لا حياة فيها.

حدق في وجه والده باحثاً عن تلك القطعة بشغف، فوجد حاجبين مقطبين مع أن الشمس كانت تتوارى خلفهما وعينين حزينتين تحاولان النظر في

كل اتجاه إلا في اتجاه الباقة ووقع في أذنيه صوت خافت مكلوم يقول له ببرود: جميل، جميل، هيا لنذهب إذاً.

توقف الزمن لبرهة، تغير العالم من حوله، صارت الشمس فجأة حارقة بعد أن كانت دافئة، نسمات الربيع بدت وكأنها عاصفة تنسف اللوحة الضعيفة، فلوحة لا حياة فيها لا تستطيع أن تصمد أمام هبّة خفيفة، فكيف برياح شاحبة؟ لقد بعثرت الرياح كل القطع ورمتها خلف سور البستان لتصدمها السيارات آخذة بها إلى مكان أبعد لا أمل فيه بعد ذلك إلى التشكل من جديد، ولولا مشاعر غضب سيطرت عليه وجعلته يخنق الباقة بيده لسقطت هي الأخرى وتبعثرت.

مشى بجانب والده وكأنه يمشي بجانب رجل غريب، لم يستطع أن يعبر عن صدمته ولا عن عجزه عن إدراك الموقف، كيف تجتمع كلمة جميل مع حاجبين مقطبين؟ لقد كان حاجبا والده وعيناه الحزينتان وصوته الباهت أكثر صدقاً من هذه الكلمة التي تبدو حروفاً بلا معنى وصوتاً بلا مشاعر.

خلال الطريق إلى جدته لم يتمكن من التقاط أي صورة جديدة، لقد كان عقله منشغلاً بحل تلك المعضلة، ولأنه لم يكن يعلم أن والده في تلك اللحظة ما كان يرى أمامه إلا مشاكل العمل وخصوماته مع زوجته، حلها على طريقته وقال في نفسه:

لم يرض أبي عن فعلي هذا. قطف الأزهار وتجميع الباقات وإهداؤها لا يليق بالصبية، ذلك خاص بالفتيات فقط. كنت أعلم ذلك ولكني أردت أن أفاجئ جدتي وأحببت هذه الأزهار. لن أقطف زهرة بعد اليوم، سوف أبتعد عن البساتين ما استطعت. أما جدتي فهذه آخر باقة أهديها لها، سأقابلها بقبلة على يدها فقط كما يفعل الصبية الأقوياء وكما يحب والدي أن أفعل، أما الباقات فسأتركها لأختي لتفاجئ بها جدتي. صحيح أن

الفصول باتت عندي الآن كلها خريف، لكنها الضريبة التي يجب أن أدفعها حتى لا أجعل أبي يحزن مرة ثانية.

لم يستطع جواد أن يكسب القبول من والده فامتلأ قلبه فراغاً وصار البحث عن هذا القبول وملء الفراغ هو المحرك لكل علاقاته، والتوقع المسبق بأنه غير جدير بالحب زاد من احتقاره لذاته وتعظيمه لغيره، وها هو اليوم يكرر ذات التجربة مع مديره التي جربها سابقاً مع أحمد.

أول الانعتاق

رافعاً الراية البيضاء تصالح جواد مع اكتئابه وتنازل له عن كل شيء، حتى ابتسامته المتكلفة التي كان يقابل بها أهله وزملاءه تخلى عنها. ما عاد اكتئاب جواد حبيس قلبه وما عاد زملاؤه يتعجبون من بهجته غير المنقطعة، أما أبواه فكاد قلباهما ينفطران من رؤية ابنهما الوحيد يذوب حزناً. باتت ابتسامة جواد حكراً على يوسف، وكأن اللحظات التي كان يعيشها معه رقمياً قد أفلتت من قبضة الاكتئاب.

وفي إحدى الليالي كانت حبات المطر تنقر على نافذة غرفته التي فقدت رونقها، وكأنها تحاول أن تواسيه وتقول له: جواد، تعال. ألا تريد أن تسير في طرقات مدينتك الحبيبة؟ ألا تريد أن ترى ضوء القمر منعكساً على الأرض المبتلة؟ ألا تريد أن تسمع أصوات السيارات؟

لكن جواداً لم يسمعها ولو سمعها لأخبرها أنه قد باع كل ذلك للاكتئاب. في أقرب اللحظات إلى الاستسلام يجد المرء نفسه مجرداً من كل قواه وبانتظار خارقة من الله تعالى لينقذه مما هو فيه، وعندما قال يا الله حينها كان يعيش تلك اللحظات، كان منهكاً إلى الحد الذي لم يعد يسمح لعبراته بالعبور، لقد كان كل ما فيه مكبلاً بأكبال عددها بعدد عثراته، ولأن لسانه كان مكبلاً أيضاً انطلقت كلمة يا الله من أعماق صدره محملة بالآهات. كان أقرب شيء ليده هو هاتفه الذي يهرب إليه عادة ليخدر به أوجاعه، فتحه فإذا بصورة يوسف تحرك قلبه وفوقها إشعارات بأخبار هذا العالم الذي يبدو يحتضر وأكثر ما هزّه من تلك الأخبار كان ما يعانيه أطفال الأرض في مشارقها ومغاربها من ظلم وتشويه للأخلاق وتبديل للفطرة.

نسي جراحه النازفة حرقة وألماً وجلس يتأمل صورة يوسف تارةً ويقرأ الأخبار تارةً أخرى وقلبه يكاد ينفطر خوفاً على يوسف، ثم سأل نفسه: ماذا فعلت من أجل يوسف؟ هل ستبقى مستلقياً على سريرك إلى أن

يقترب منه الخطر؟ ألهذا خُلقت؟ هل ستشفع لك مشكلة حياتك عندما ستقف بين يدي الواحد القهار؟

شعر بطعنة عميقة في صدره عندما أحس أنه باستسلامه ربما يكون شريكاً في كل هذا الظلم، و كأن هذه الطعنة هزته هزة أقوى حتى سمع صوت الأكبال ترتطم ببعضها وتتكسر، وأول ما تحرر منه كان لسانه و أول ما قاله: لا، لن أقف مع الظلمة، ثم شعر بأطرافه تتحرر ثم ترتعش و كأن شرارات تسير من خلالها فانتفض من سريره باتجاه باب المنزل مسرعاً ومن دون تفكير فتح الباب وانطلق يركض بغير وجهة و الأمطار المنهمرة من السماء رحمة تغسل وجهه وتعانق دموعه الغزيرة وصدى أناته يلف الأزقة الخالية، ودون أن يعلم الكيفية وجد نفسه داخل المسجد ساجداً وقد بللت دموعه الأرض قبل حبات المطر المتقطرة من ثيابه.

كانت سجدة غير كل سجدات حياته، سجدة عهد لن يخلفه، عهد مع خالقه عز وجل، نصه: خلقتني رجلاً وسأعيش رجلاً كما أردت لي أن أكون. وفي طريق العودة دعا الله عز وجل أن يحمي يوسف ويفرّج عن أطفال العالم وأهليهم ما هم فيه، وعندما وصل وضع رأسه على وسادته مواصلاً الدعاء والبكاء إلى أن استسلم للنوم.

مع تنفس الصبح تسللت أشعة الشمس من خلال فتحات الستائر لتنثر الدفء على جفني جواد وتنعكس من على قطرات كالندى أبت أن تسقط مع دمعاته فاستقرت على أهدابه. استقبل نور الشمس بالحب كما استقبل نور الهدى بقلبه. فتح الستائر فإذا بمشهد يشبه قلبه، الأرض مرتوية بعد ليلة ماطرة والحياة تدب عليها وكل ذرة تسبح خالقها وباريها والحب عنوان كل شيء والدهشة زينته التي ازين بها قلب جواد أيضاً. وأي قلب يقوى على استشعار آلاء الله العظيمة دون أن يذوب من الدهشة؟

وقف جواد عند النافذة يتشارك الدهشة مع الكون من حوله مستعرضاً نعم ربه الكريم اللطيف الودود المتجلية في ابتلائه، متأملاً المنح العظيمة

المولودة من رحم المحنة. اختباره بدأ مذ ارتبط والده بوالدته على ما فيهما من ضعف لا يخلو منه بشر.

في عائلة يُجمع الناس على أنها مثالية وتشهد جدران بيتها على بطلان هذا الإجماع وُلِد جواد مرهف الإحساس، متقد الذكاء، متعدد المواهب، هبات عظيمة تبشر بمستقبل قد يُشار إليه بالبنان إلا أن صقلها ليس بالأمر السهل، لاسيما مع أب غائب وأم يطغى حضورها على كل حضور.

هناك بدأت غربة جواد لتصبح مدرسة عظيمة يربيه الله تعالى بها ويقربه منه من خلالها ويصنعه على عينه فيها، وهو في هذا كله معه، يمده بالقوة ويصونه وينير دربه.

في خضمّ كل محنة كان يجد نفسه أمام مفترق طرق فإذا بالله تعالى يشرح صدره لدربه، يعلقه بحبه ويصغر في عينه كل محبوب سواه، ثم يسخّر كل شيء حوله ليسهّل له السير فيه.

مع كل محاولة للتوجه لطلب العون من العباد كان يجد أبوابهم موصدة في وجهه وإذا بباب رب العباد مفتوح له.

بعد كل ألم انكسار بين يدي الجبار ومع كل انكسار فيض دمع يغسل القلب ويطهر الروح ويزكي النفس.

ومع كل هذا الضعف كان يكتب الله لجواد القبول بين الناس ويملأ قلوبهم بحبه.

ويبقى الحب عنوان كل شيء وتبقى الدهشة زينته ويبقى لسان جواد يلهج بما قاله زكريا عليه السلام: لم أكن بدعائك رب شقيا، لم أكن بدعائك رب شقيا.

جهز جواد نفسه للذهاب إلى العمل بهمة عالية متخذاً قراراً بالتقبل والمواجهة، تقبل النفس على ما فيها من ضعف ومواجهة هذا الضعف

بالتزكية والصبر، كان على يقين ألا سبيل لتفعيل هذا القرار إلا بالصدق فتحلى به وانطلق متوكلاً على الله.

على الطريق وجد مكتبة، شيء ما دفع به لداخلها، لم يكن يبحث عن كتاب يقرؤه وإنما عن هدية يهديها وأي هدية أعظم من كتاب الله عز وجل؟

خرج منها ومعه مصحف وظرف وعندما وصل مكتبه أمسك بقلم وكتب على ورقة:

من الصعب جداً أن تبقى المشاعر حبيسة القلوب، صحيح أنها تهجم علينا بلا استئذان لكنها لا تخرج إلا إذا أطلقنا لها العنان...

ولذلك أكتب لك أخي الفاضل...

اعذرني على جرأتي في رفع الألقاب، لكن الأخوة هي الوطن الذي تنتمي إليه هذه المشاعر.

توقف جواد عن الكتابة، فكر ملياً، لم يتمكن من تحديد هذه المشاعر التي أراد أن يبوح بها لمديره في رسالة، مزق الرسالة وأخذ ورقة جديدة ليكتب هذه المرة حواراً مع نفسه:

تحري الصدق يا نفسي...

ما أبلغ كلماتك يا حبيبي يا رسول الله...

لولاها لبقينا نرزح تحت قناعاتنا الواهمة بأن الصدق مجرد قرار...

ولما علمنا يوماً أن الصدق جهاد... ومن دون توفيق الله عز وجل محال...

جاهدي يا نفسي، اقتحمي العوالم المجهولة في أعماق قلبي علك تجدين ضالتك، لا تخافي الوحشة فرب العباد معك وهو الذي سواك وألهمك فجورك وتقواك. اعتصمي به وتضرعي إليه، احتمي بحماه كلما هجم عليك ألم ففي العوالم المجهولة كثيرة هي الآلام فإياك والتولي، إياك والتولي...

أتراه الحب في الله ذاك الشعور الذي يتملكك كلما صادفت المدير الوسيم؟

وهل يبنى الحب في الله على الوسامة؟

هل يحرم الحب في الله لسان العبد من ذكر الله؟

لامتلاء القلب بالمحبوب؟ واشتغال العقل بالتفكير به؟ وترقب لقائه كل حين؟

معذرة يا نفسي، لم يكن يوماً حباً في الله، الحب في الله يُبنى على طاعة الله ويسير نحو رضاه، الحب في الله يطرد من القلب كل حب يزاحم حب الله.

إذاً لعله الحب فقط؟

وهل للحب والحزن أن يجتمعا؟ هل للحب أن يكبل المحب؟ أن يستنزف قواه؟ أن يحرمه الحياة؟

لا يا نفسي...

الحب حياة... الحب حيث يزول الحد بين الأخذ والعطاء...

اعلمي يا نفسي ألا حب إلا الحب في الله...

خوضي يا نفسي ولا تخشي شيئاً، لعلك اقتربت، نعم اقتربت فالألم اشتد أعظم اشتداد...

تتبعي حلقات تلك السلسلة لعل عند نهايتها الجواب...

مؤلم مشهد القيد حول عنق جواد...

لكن مفتاحه بيده...

لكنه منهك أيما إنهاك...

منهك من تعلق اتخذ من قلبه فتيلاً ليحرق كل اللحظات...

إنه التعلق يا نفسي، ذاك ما تبحثين عنه، حيث يستغرق المرء في الأخذ حاسباً أنه يتفانى بالعطاء ثم يفجعه أن التعلق ما زاد قلبه إلا خواء ليعيد الكرة محاولاً ملء ذلك الفراغ...

الفراغ الذي فرضته الغربة قسراً ووسعت حدوده في كل منفى...

وكيف السبيل إلى الانعتاق؟

اعلمي يا نفسي أن فراغ القلب لا يملؤه إلا حب مقلب القلوب والأبصار، فأمسكي عن محاولة إجبار الآخرين على تحقيق ذلك، أعرضي عن الخوض في عالم الخيال فالغرق فيه وشيك.

لن يعيش جواد في الحقيقة أية لحظة من اللحظات التي فصّلها في عالم الخيال...

لن يتملّك مديره أبداً، لن يعوضه عما افتقده من والده، لن يضمن أن يحتل جزءاً صغيراً من قلبه وإن احتله فإنه السراب...

لمديره حياته، عائلته، أصدقائه...

لمديره عالمه فليبن جواد عالمه...

لكنه حسن الوجه، كريم الخلق، طيب المعشر...

ماذا أفعل بكل تلك الحقائق؟ أليست هي سبب التعلق؟

أأنكرها؟ وماذا عن الصدق حينها؟

مهلاً يا نفسي...

لا إنكار للحقائق مع الصدق وإنما إفصاح...

إنها لنعمة عظيمة أن يرزق الله جواداً مديراً يحلو معه العمل...

ليس جواد وحده المعجب بتلك الأوصاف...

زملاؤه أيضا، السائق، ساعي البريد، الخباز الذي ينتظر لقياه كل صباح...

إنها محبة يقذفها الله الكريم في قلوب العباد...

وفي قلب جواد ذات المحبة، لكن التعلق يقمعها...

إذاً أنعتق من العمل معه وأبتعد علّي أنساه؟

هو ليس الرجل الوحيد في هذا العالم، في العمل الآخر كثير من الرجال...

ولعل أحدهم أحسن منه في كل شيء...

ولعل التعلق به أمرّ...

فإياك والتولي، إياك والتولي...

إنه رحمة رب العالمين لجواد، هو جزء من الاختبار، وبالانعتاق منه فوز عظيم...

فليرفع جواد المفتاح، وليفتح القيد...

لكن المفتاح صدئ...

فليكسر القيد إذاً...

خرج جواد من مكتبه ممسكاً بالمصحف وقاصداً مكتب المدير، ليس من عادته أن يقابله دون ميعاد لكن صبره أخذ ينفذ والقيد حول عنقه كاد ينحره. كان باب المكتب مفتوحاً والمدير بداخله يقلب بعض الأوراق.

جواد: السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المدير: وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته، أهلاً يا جواد.

جواد: عذراً على المقاطعة، لن آخذ من وقتك الكثير.

المدير: لا مشكلة يا جواد، تفضل.

حاول جواد السيطرة على دقات قلبه المتسارعة وأنفاسه المضطربة ثم قال:

أحببت أن أهديك هذا المصحف عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام تهادوا تحابوا ولينالني من الأجر كلما قرأتَ به ومن الدعاء كلما تذكرت أنه هدية مني.

وقف المدير إجلالاً لكتاب الله عز وجل وأخذ المصحف بيمينه ثم قال:

ونعم الهدية يا جواد، بارك الله فيك، أسأل الله العظيم أن يجعلنا من المتحابين فيه المتمسكين بكتابه وأن يرزقك الأجر العظيم مع كل حرف أقرؤه. سأدعو لك إن شاء الله، وأنت لا تنساني من دعائك.

وقف جواد لا يدري ما يقول، لم يكن الخزي الذي تحكم بانفعالاته هذه المرة. لم يستطع أن يسمي الشعور الذي انتابه، لكنه كان حاضراً واثقاً مقدراً لذاته فقال له بعفوية لم يعشها من قبل:

أنا أدعو لك دائماً، إنه لفضل كبير من الله سبحانه وتعالى أن أعمل مع حضرتك، أنت من الناس الذين يدخلون القلب بلا استئذان، شكراً جزيلاً على مساعدتك ودعمك لي خلال فترة التدريب، أسأل الله العظيم أن يجمعنا في جنته بصحبة نبيه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم.

كان التواضع والسرور باديان على وجه المدير، مد يده إلى جواد ليصافحه قائلاً:

اللهم آمين، أسأل الله العظيم أن يجعلني عند حسن ظنك.

صافح جواد مديره بثقة وعلى وجهه ابتسامة مفعمة بالحياة، لم تُعِده المصافحة طفلاً هذه المرة، لقد كان تقديره لذاته كفيلاً بجعله يرتفع بمستوى النظر وتواضع المدير وامتنانه كفيلين بأن تلتقي عينا جواد بعيني مديره على أساس علاقة أخوية خالية من الخزي.

خرج جواد من عند مديره يشع أملاً، صوت خرج من أعماق صدره وبشره ببشرى عظيمة، لن تكون فريسة للخزي بعد اليوم، أنت من سيلاحقه ويهزمه عند كل نزال بإذن الله تعالى.

وهو متجه إلى مكتبه اعترض طريقه شادي، تظاهر أنه يريد أن يسأله عن شيء يتعلق بالعمل محاولاً إجباره على الدخول إلى مكتبه ليستنطقه عن سبب وجوده عند المدير كما كان يفعل في كل مرة يرى فيها جواداً خارجاً من عنده. كان تقديره لذاته أقوى من أن يسمح له بأن يضعف أمام شادي كما في كل مرة ويرضخ لطلبه فنظر إليه بعينين متقدتين ما رآهما شادي من قبل وقال له بنبرة حادة:

أنا مشغول جداً، لا وقت لدي الآن.

كانت صفعةً قويةً لشادي كادت تجعل غيظه يحرقه لاسيما بعد صمود جواد أمام مضايقاته المتكررة، لم يستطع أن يختبئ خلف ابتسامته هذه المرة، فكشر عن لؤمه وقال لجواد:

ستندم كثيراً.

لم يكن شادي يعلم أن هذا الوعيد كان آخر مضايقة يستطيع أن يوجهها لجواد، فورقة إقالته كانت تُوقَّع في تلك الأثناء لمخالفاته الكثيرة لشروط العمل وتأخره الدائم عن تسليم المشاريع، ولم يُحدِث ذلك الوعيد أي خوف في نفس جواد الذي رأى لأول مرة ضعف شادي بلا قناع.

ومنذ ذلك اليوم وجواد يفكر بوعي، يراقب مشاعره ويلاحق الخزي ويجبره على النزال حتى الانتصار. دخل عالم الحقيقة بثبات مستكشفاً الحياة فيه، نزع نظارة الوهم وأصبح يتعرف على كل من حوله من جديد. اكتشف أن مديره عنده من الضعف ما عند غيره من الرجال وأدرك أنه في عالم الحقيقة قادر على الحظوة بالقبول من الرجال لكنه قبول حقيقي لا سراب.

بدأ يتقرب من والده ليس بحثاً عن حضنه وإنما عن بره، وأصبحت تعليقات والدته التي كانت تغضبه أحب على قلبه من العسل.

لم تعد الرياضة مجرد وسيلة للوصول إلى صورة مثالية وإنما حياة تنعش كيانه وسعادة تغمر أيامه، وما عاد عدد التمارين هو الهدف، وما عادت المرآة تهدد بخطر الغرق وإنما تجعل لسانه يلهج بالدعاء: اللهم أحسن خلقي كما أحسنت خلقي.

فراغ قلبه بات من الماضي، فحب الله تعالى ملأه وسار في شرايينه وصار الحاكم على كل حب.

في رحاب الوطن

حازماً ذكريات ما مضى ومتوشحاً بالتوكل والرضى مضى جواد بخطى واثقة، تابعاً النور المنبعث من الوطن منتشياً بنفحاته. ما عاد المنفى يروق لجواد وما عاد هجره يرعبه. قبل اتخاذ القرار بالرحيل قرأ آيات من كتاب الله الكريم فاستقرت في قلبه لتؤنس وحشته في الطريق إلى عالم الرجولة فإذا ما هجم عليه خوف من المجهول قال: كلا إن معي ربي سيهدين، فاطمأن وطلب الهداية من ربه وإذا ما شعر بالوحدة تذكر قوله تعالى: وحناناً من لدنا، فسكن ودعا ربه أن يتغمده برحمته.

كان مدركاً أن الوصول إلى عالم الرجال لا يكون إلا من خلال العلاقة معهم، وكانت علاقته مع مديره وانعتاقه من التعلق به إثبات لهذه الحقيقة، لذلك عاد جواد إلى أصدقائه الذين هجرهم لمدة، عاد إليهم وقدمه ثابتة في عالم الحقيقة ومستعداً لاستقبال كل المشاعر وتقبلها وللتفكير بوعي صابراً محتسباً إلى أن يأذن الله تعالى له بأن يستقر في وطنه.

تواصل مع أصدقاء الجامعة ودعاهم إلى زيارته ليستحضروا معاً ذكرياتهم الجميلة وليعلموا أين أصبح كل منهم في درب الحياة، لاقت الفكرة قبول الجميع فقلوبهم كانت عطشى للقيا أصحاب الأيام الخوالي بعد أن كادت مشاغل الحياة تنسيهم أنفسهم.

كان جواد متحمساً جداً للّقاء إلا أن مشاعر الخوف كانت في تصاعد مستمر كلما اقترب الموعد، فقد كان موعداً غير كل المواعيد، موعداً في عالم الحقيقة حيث لا مجال للهروب إلى الوهم، كان تحدياً كبيراً لكن جواد كان مستعصماً بربه وقبل الموعد بساعة صلى ركعتين ثم دعا ربه:

يا الله، يا الله، يا الله...

أنا خائف فآمن خوفي يا الله...

وقفت ببابك وكلي رجاء...

وقفت ببابك مثقلا بالأحمال...

أحسب أني ما دعوتهم إلا سعياً لكسب رضاك، لأصبح كما أردت لي أن أكون، لأحصن نفسي ولأصبح المؤمن القوي...

فإن كنت تعلم في نيتي غير ذلك، فاجعلها خالصة لوجهك الكريم يا الله...

كان على جواد أن يستعد للاستقبال لكنه كان غير قادر على ذلك بمفرده، فظل متصلاً بخالقه جل وعلى، يدعوه ويستمد منه القوة والثبات.

قُرع الباب، كان الأصدقاء قد التقوا عند أول الطريق المفضي إلى بيت جواد ثم جاؤوه معاً. سمى بالله ثم فتح الباب فإذا بالبهجة تدخل بيته وبالدفء يملأ قلبه وإذا بأصدقائه يقبلون عليه بحب صادق وابتسامة ساطعة وذراعين مفتوحتين. فما كان منه إلا أن قابل الحب بالحب والابتسامة بالابتسامة والذراعين المفتوحتين بالعناق. جرعة حب ما تعرض لها جواد يوماً عقدت لسانه وصبغت وجهه بالأحمر والرفاق يحيطون به، كانت ضحكاتهم تشعره أنهم على وشك أن يرفعوه احتفاءً بدخوله إلى عالم الرجولة.

أطلّ الخزي برأسه من بعيد محاولاً أن يسلب جواداً تقدير ذاته وأن يعيده طفلاً، إلا أن جواداً رآه وأخذ به إلى المطبخ بعد أن استأذن من الرفاق ليعد لهم القهوة.

دخل المطبخ وأغمض عينيه مفعلاً الوعي ومحاولاً ضبط انفعالاته وقراءة مشاعره بهدوء، تجاهل كل الانفعالات التي مست أسفل جسده وارتقى بالإدراك إلى صدره مستجمعاً خبراته القديمة. هو يعلم الآن أصل كل شعور في ماضيه ويحاول ألا يكرر تجاربه القديمة وأن يتخلى عن

توقعاته المسبقة، قلبه الآن معلق بالله سبحانه وتعالى وتقديره لذاته سيسد الطريق على الخزي ويمنعه من الوصول إلى مبتغاه.

سكن جواد، هدأت أنفاسه و استقرت ضربات قلبه، أعد القهوة ثم خرج على رفاقه و كأنه جواد جديد، كانوا ككل الشباب في أعمارهم يتبادلون أطراف حديث ذي شجون، فيقول أحدهم: آن الأوان لنا أن نودع العزوبية يا شباب، فيرد الآخر: فتحت مع والدتي موضوع الخطبة، لكنها لم تبدأ بالبحث بعد، فيجيبه ثالث: عليك بالإلحاح صباح مساء يا صاحبي، لا خطبة من غير إلحاح، ثم تعلو الضحكات و جواد الخارج للتو من المطبخ يضحك معهم دون أن يشارك في الحديث خوفاً من أن يضطر إلى العودة إليه مسرعاً ليسيطر على انفعالاته من جديد، لكن تجنبه الانخراط في الحديث لم يؤتي ثمرته فسرعان ما طرق سمعه قول أحدهم: عندي إحساس أن جواداً سيكون أولنا، انظروا إليه و هو يقدم لنا القهوة ألا يبدو عريساً؟

لم يعتد جواد أن يقول ما ليس في قلبه فالصدق يمنعه، كان يشعر أن عليه أن يتظاهر بحاجته الملحة إلى الزواج ليبدو مثل أصحابه لكنه بفضل الله استطاع أن يستجمع قواه ويقول:

أسأل الله العظيم أن يرزقنا زوجات صالحات.

فقال الجميع آمين.

حاول جواد أن يكمل جلسته مع أصحابه مطمئناً وألا يضيّع لحظاتها الجميلة، كان يضطر بين الحين والآخر إلى الانفصال عنها مغلقاً عينيه قليلاً للتركيز على مشاعره وأفكاره وتوكيده لذاته، فإذا ما فُتِح موضوع وشعر أنه خارج الحديث أغلق عينيه قبل أن يشعر بأنه مهمّش وقال في نفسه:

من الطبيعي أن تبعدني مشكلة حياتي عن كثير من اهتمامات الشباب، لكن مهمتي في الحياة ألا وهي عبادة الله عز وجل لن تتضرر بذلك، ليس من الضروري أن أشارك بكل الأحاديث أو أن أكون الأفضل دائماً، هذا كان في الماضي عندما كنت على خشبة المسرح أحاول سرقة القبول من الآخرين، أما الآن فأنا أعيش في الواقع، لست الأفضل وعندي نقاط ضعف ولا أحتاج القبول من أحد، سأستمع لهم علّي أستفيد من معلومات جديدة.

وإذا ما وقع بصره على أحد رفاقه ذوي الصورة القريبة من المثالية، أغلق عينيه مجدداً قبل أن تتمكن منه مشاعر الدونية وقال في نفسه:

أنا لست مجرد صورة وكذلك الآخرون ليسوا مجرد صور ولقد علّمَنا نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أن الله لا ينظر إلى صورنا وأجسادنا وإنما ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا.

وإذا ما حاول بريق عيني أحد الرفاق أن يسلب بلبه ويعلقه به أغلق عينيه قائلاً لنفسه:

الحنين إلى ما افتقدته من والدي هو ما يدفعني إلى التعلق بصديقي، وما افتقدته لن أحصل عليه من هذا التعلق، المهم أن الغاية التي وُجد لأجلها هذا الحنين قيد التحقق بإذن الله تعالى، وفراغ القلب الذي تركه سأملؤه بحب ربي جل وعلا.

وبين الوعي بالجلسة والاستمتاع بها وبين الوعي بالنفس والأنس بها قضى جواد ساعات بهجة مع رفاقه وكأنها دقائق والخزي واقف ذليلاً في الخارج لا يتجرأ على الدخول.

غادر أصدقاء جواد تاركين خلفهم واحة خضرة في صحراء حياة جواد ممهدين له في واقعه لا في خياله معبراً نحو الوطن.

تكررت لقاءات جواد مع أصحابه، ومع كل لقاء كان الحب الأخوي يصبغ علاقاته معهم بشكل أكبر، وعفويته في التعبير عن مشاعره أمامهم تنمو بشكل أسرع، لكن رواسب من حياته في المنفى كانت لا تزال عالقة في تلك العلاقات ورغبته الملّحة في عناق رفاقه كلما قابلهم أثارت عنده التساؤلات التي سارع في البحث عن إجاباتها في سنّة الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فما أن قرأ الحديث:

قالَ رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ، الرَّجلُ منَّا يَلقى أخاهُ أو صديقَهُ أينحَني لَهُ؟ قالَ: لا، قالَ: فيَلتزمُهُ ويقبّلُهُ؟ قالَ: لا، قالَ: فيأخذُ بِيدِهِ ويصافحُهُ؟ قالَ: نعَم.

حتى قال سمعاً وطاعةً، ممتنعاً عن عناق أصدقائه إلا في مناسبة، وأصبح كلما ألحّت عليه الرغبة بالعناق رد عليها حازماً: زوجتي وأطفالي أحق بالعناق، مؤسساً بذلك لعلاقة حب مع زوجة وأطفال المستقبل.

وفي أحد أيام البركة وبعد أن قرأ سورة الكهف أمسك جواد بقلم وورقة وكتب حواراً جديداً مع نفسه:

أتشمين العطر يا نفسُ؟

ومن ذا الذي لم يشمه؟

هل من زهرة لم تستمد العطر منه؟

أو طير لم يشدُ انتعاشه؟

ما تراه هذا العطر يكون؟

أكاد أجزم أني شممته من قبل...

متى شممتِه؟

قبل أن يحتل الخزي عالمي...

إذاً هو ريح تراب الوطن...

هل عاد جواد إلى الوطن؟

إنه في قلب الوطن...

وماذا عن الخزي؟

ما عاد يذكر معناه...

وماذا عن الحب؟

أحب الله تقصدين؟

وهل من حب غيره؟

ما عاد في صدره إلا حب الله ينبض...

أو حب يقربه إلى حبه...

وماذا عن ذراعيه الدافئتين؟

وصدره؟ أما آن له أن يصبح وسادة؟

إلام تلمحين يا نفسي؟

أنت تعلم أن الحب ما خُلق ليُهدَر...

هل حان وقت الإلحاح؟

نعم... صباح مساء...

خرج جواد من غرفته، فوجد والديه على غير عادة معاً، يحتسيان مع القهوة شوقهما ليوسف وهما يقلبان بصوره. نال منهما الرضى ثم قال:

يبدو أنكما بحاجة إلى حفيد جديد يملأ عليكما هذا البيت، وأنا مستعد لتنفيذ هذه المهمة. فأجابت والدته بسرعة:

الحمد لله الذي أطال بعمري لأعيش هذا اليوم، أسأل الله أن يطيل به لأرى أولادك.

نظر جواد في عينيها فإذا بالحزن القديم يملؤهما، فحزن لحزنها، أراد لها أن تتحرر من تعلقها به، لكنه لم يستطع إلا أن يطمئنها قائلاً:

ستملين من زياراتنا يا أمي.

ثم قبّل جبينها.

نظر إلى والده فإذا بعينيه تفيضان حباً وتكشفان عن كلمات محبوسة في فمه، لكن جوارحه كانت عاجزة عن التعبير، فاتجه جواد نحوه، قبل رأسه وعانقه وكأنه يعانق ابنه، فنطق والده بصوت حنون:

رضي الله عنك يا ولدي، رضي الله عنك يا ولدي...

عاد جواد إلى ركن الصلاة في غرفته، صلى ركعتين حمداً لله تعالى ثم دعا:

رب ارحمهما كما ربياني صغيراً...